العقوبة
الاختفاء

حين يُمحى الإنسان...من السجلات، من الوجود، من الذاكرة
ولا يبقى له من العالم سوى عدمه.

أحمد حسن محمد أحمد

مقدمة قصيرة للكاتب احمد حسن محمد احمد

هذه الرواية بديعة حقا. تبين ببساطة ومرارة كيف يمكن ان يلتزم جموع الناس والغالبية الساحقة بالقانون حتى لو كان ظالما وغير عقلاني وغير صحيح وكيف يمكنهم تصديق الوهم الى درجة ان يبدو حقيقيا. ولماذا نذهب بعيدا وقد راينا هذا فى سنة ٢٠١١ وحتى اليوم ٢٠٢٦ وقبلها فى ١٩٧٩ فى ايران وافغانستان. حيث كيف تمكن الخلايجة واوباما وكارتر وريجان وبايدن وهيلارى وكامالا وكاميرون وماكرون واولاند وساركوزى والسادات وال سعود وال ثانى ونخبة خائنة تدعى الثقافة والعلمانية واللادينية فى سوريا وليبيا ومصر من تصوير الاتحاد السوفيتي والقذافي وحافظ وبشار الاسد كأنهم الشر المطلق والطغاة الدمويون وكيف باركوا امثال الجولانى احمد الشرع والدبيبة وكيف باركوا الافغان العرب وطالبان والاخوان والسلفيين وكيف نشروا الحجاب والنقاب واللحى والتكفير والاخوانية والسلفية فى مصر وسوريا والجزائر وليبيا الخ. وكيف ترى اليوم ٢٠٢٥ و ٢٠٢٦ ملحدين وعلمانيين سوريين وعرب يمجدون الجولانى وامثاله الدبيبة واردوغان وتميم بن حمد ومحمد بن سلمان من الارهابيين الاخوان والسلفيين ويقلبون الحقائق والتاريخ والحاضر والمستقبل.. والكل يطيعهم او يصمت خوفا او جهلا او لا مبالاة. فلا غرابة اذن فى روايتنا فلقد تحققت امام عيوننا واقعا.

الفصل الأول

يوم عادي

استيقظ كريم على صوت المنبّه الهادئ الذي ينبثق من الجدار نفسه. لم يكن هناك جهاز منفصل، فقط ضوء أزرق خافت ينزلق على السقف ثم يتحول إلى صوت ناعم يقول:

«السابعة وأربع دقائق. درجة الحرارة داخل الشقة واحد وعشرون. لا توجد رسائل عاجلة.»

فتح عينيه ببطء. السقف كان أبيض نظيفاً كما هو دائماً. الجدران شفافة جزئياً، تُظهر المدينة في الأسفل كأنها لوحة إلكترونية هادئة: أبراج زجاجية تتلألأ تحت شمس صناعية، وسيارات طائرة تمر في مساراتها المحددة بدقة، وأشجار معدلة وراثياً تُطلق رائحة خفيفة من الياسمين في الصباح.

نهض. دخل الحمام. الماء الساخن انساب عليه من الجدران دون أن يلمس صنبوراً. نظر إلى وجهه في المرآة الذكية. شعر أسود قصير، عينان بنيتان هادئتان، وملامح لا تحمل تعبيراً واضحاً. المرآة همست:

«معدل ضربات القلب طبيعي. مستوى التوتر منخفض. هل ترغب في تقرير المزاج اليومي؟»

هز رأسه. لم يكن يريد تقريراً.

ارتدى بدلة العمل الرمادية الفاتحة، تلك التي تُغسل نفسها ليلاً. خرج من الشقة. الباب انزلق خلفه بصوت خفيف كتنهيدة.

في المصعد، وقف إلى جانب امرأة في الأربعين. ابتسمت له ابتسامة مهذبة ومختصرة. لم يرد الابتسامة. لم يكن يكرهها، لكنه لم يجد سبباً كافياً ليردها. المرأة نظرت إلى ساعة يدها ثم إلى الباب. عندما وصل الطابق الأرضي، سبقتْه بخطوات سريعة دون أن تلتفت.

في الشارع، الهواء كان مبرمجاً على درجة معتدلة. الناس يتحركون كأنهم قطع في لعبة شطرنج كبيرة. كل واحد يعرف مساره. كريم سار نحو محطة النقل العامة. صعد إلى القطار الطائر الذي ينزلق فوق المدينة كأنه سيف فضي. جلس بجانب نافذة. رجل مسن بجانبه حاول أن يبدأ حديثاً عن الطقس الصناعي الجديد. كريم أجاب بجملة واحدة قصيرة:

«نعم.. لطيف.»

ثم عاد ينظر إلى الخارج. الرجل صمت.

في الشركة، «نوركوم»، كان الطابق السابع والأربعون يعج بصمت منظم. الشاشات الشفافة تطفو في الهواء، والموظفون يتحدثون بصوت منخفض أو عبر واجهات عصبية مباشرة. كريم دخل مكتبه الزجاجي الصغير. على الشاشة ظهرت قائمة المهام اليومية. معظمها روتيني: مراجعة خوارزميات التفاعل الاجتماعي للإصدار الجديد من نظام «هارموني».

في الاجتماع الصباحي، جلس الجميع حول طاولة مستديرة شفافة. المدير، رجل في الخمسين بابتسامة دائمة، قال:

«نريد أن نرفع معدل التعاطف المسجل في التطبيق بنسبة أربعة في المئة هذا الربع. المستخدمون يشكون من برودة بعض الردود الآلية.»

ضحكت زميلة تدعى «لينا» ضحكة خفيفة. التفتت إلى كريم:

«أنت دائماً هادئ في الاجتماعات يا كريم. هل لديك اقتراح؟»

نظر إليها. ابتسم ابتسامة صغيرة لا تصل إلى عينيه.

«الاقتراحات موجودة في التقرير الذي أرسلته أمس.»

لينا انتظرت لحظة إضافية، كأنما كانت تنتظر شيئاً أكثر. عندما لم يأتِ، عادت بنظرها إلى المدير. لم يقل أحد شيئاً. الاجتماع استمر.

في استراحة الظهيرة، جلس الموظفون في الحديقة الداخلية. نباتات حقيقية وزهور معدلة تُطلق روائح مختلفة حسب الساعة. أحد الزملاء، شاب اسمه «ياسر»، اقترب من كريم وهو يحمل فنجاني قهوة.

«خذ.. بدون سكر كما تحب.»

كريم أخذ الفنجان. شكرَه بجملة قصيرة. ياسر جلس بجانبه.

«سمعت أن والدتك اتصلت بالإدارة الأسبوع الماضي؟»

كريم رفع حاجبيه قليلاً.

«نعم. كانت تسأل عن إجازتي.»

ياسر انتظر. كريم لم يضف شيئاً. بعد دقيقة، نهض ياسر وقال بهدوء:

«حسناً.. إذا احتجت شيئاً.»

ومشى.

كريم بقي جالساً. راقب الناس وهم يتحدثون ويضحكون ويتلمسون أكتاف بعضهم بعضاً بخفة. كان يعرف كيف يفعل ذلك. كان يستطيع أن يبتسم أكثر، أن يسأل عن أحوالهم، أن يشارك قصة صغيرة. لكنه لم يفعل. لم يكن يكرههم. فقط.. لم يكن يجد الطاقة الكافية.

في المساء، عاد إلى الشقة. الشاشات أضاءت وحدها. عرضت نشرة الأخبار: انخفاض طفيف في معدلات الجرائم العاطفية هذا الشهر، وافتتاح حديقة معلقة جديدة في القطاع الشرقي. كريم أغلق الشاشات بصوت واحد.

جلس على الأريكة. تذكر فجأة، دون سبب واضح، وجه والده قبل سبع سنوات. الغرفة كانت مظلمة، والرجل يجلس على الكرسي ويتحدث بصوت منخفض عن شيء مهم. كريم كان ينظر إلى الساعة. قال حينها:

«سأعود غداً.. لدي اجتماع مبكر.»

لم يعد والده في اليوم التالي. ولا في الذي يليه.

أبعد الفكرة. قام، أعدّ لنفسه وجبة خفيفة من المطبخ الآلي، وأكل وهو واقف. ثم دخل غرفة النوم.

قبل أن يطفئ الضوء، نظر إلى المرآة مرة أخرى. الوجه نفسه. الهدوء نفسه.

همس لنفسه، دون صوت تقريباً:

«يوم عادي.»

وأغلق عينيه.

الفصل الثاني

الحادثة الرابعة

في الصباح التالي، كان الطقس الصناعي يميل إلى الرمادي الخفيف. السحب المبرمجة تتحرك ببطء فوق الأبراج، والمطر الناعم يسقط على فترات متقطعة كأنه يتذكر شيئاً ثم ينساه.

كريم وصل إلى الشركة في الموعد المعتاد. المصعد كان مزدحماً أكثر من العادة. امرأة حامل وقفت بجانبه، تتنهد بين الحين والآخر. نظر إليها لحظة، ثم حول عينيه إلى الباب. عندما وصل الطابق، سبقت الجميع بخطوات ثقيلة.

في مكتبه، وجد رسالة عاجلة من المدير:

«اجتماع طارئ في القاعة الثالثة. الساعة العاشرة والنصف. موضوع: تحسين التفاعل البشري داخل الفريق.»

ابتسم كريم ابتسامة صغيرة بلا معنى. فتح الملفات. راح يراجع الأرقام.

الساعة العاشرة والنصف دخل الجميع. القاعة كانت دائرية، والجدران تعرض رسوماً بيانية متحركة عن «مؤشرات التعاطف الداخلي». المدير جلس في الوسط، وابتسامته أكثر إشراقاً من المعتاد.

«اليوم لن نتحدث عن الأرقام فقط»، قال. «أريد أن نكون أكثر صدقاً مع أنفسنا. كل واحد منكم سيشارك شيئاً يثقله في الفترة الأخيرة. شيئاً شخصياً. هذا جزء من برنامج التوازن الجديد.»

صمت قصير. ثم بدأت لينا. تحدثت عن ضغط العمل وصعوبة النوم. ياسر ذكر خلافًا مع والده المسن. موظف آخر تحدث عن قلقه من ترقية لم تأتِ. كل واحد كان يشارك، والآخرون يومئون برؤوسهم أو يضعون أيديهم على صدورهم في إشارة رمزية للتعاطف.

جاء الدور على كريم.

المدير نظر إليه مباشرة:

«كريم.. أنت هادئ دائماً. شارِكنا.»

كريم شعر بنبض خفيف في صدغيه. تذكر الوجوه المحيطة، الانتظار، والكاميرات الصغيرة المثبتة في الزوايا والتي تسجل كل شيء «لأغراض التطوير».

قال بصوت هادئ وواضح:

«ليس لدي ما أشارك به في هذه اللحظة. العمل يسير بشكل طبيعي.»

صمت أطول هذه المرة.

لينا مالت قليلاً إلى الأمام:

«حتى لو كان شيئاً صغيراً.. أي شيء. نحن هنا لنستمع.»

كريم نظر إليها. ابتسامته كانت مهذبة، لكنها باردة كزجاج النافذة.

«شكراً لينا. أفضل أن أركز على المهام.»

المدير أبقى ابتسامته، لكن عينيه تضيّقتا قليلاً.

«حسناً.. ننتقل إلى النقطة التالية.»

الاجتماع استمر عشرين دقيقة أخرى. كريم لم يتكلم مرة ثانية.

بعد انتهاء الاجتماع، وهو يجمع ملفاته، اقترب منه ياسر في الممر.

«كريم.. كنت قاسياً قليلاً اليوم.»

كريم توقف.

«لم أقصد. فقط لم يكن لدي ما أقوله.»

ياسر نظر حوله، ثم خفض صوته:

«المدير يأخذ هذه الجلسات على محمل الجد. والكاميرات تسجل كل شيء. أنا أقول لك كصديق.»

كريم هز رأسه مرة واحدة.

«أفهم. شكراً.»

ومشى.

في المساء، بينما كان يغادر المبنى، ظهرت على ساعته الذكية رسالة قصيرة من النظام الإداري:

«تم تسجيل ملاحظة سلوكية رقم ٤ – نقص في التفاعل العاطفي المطلوب. سيتم مراجعة الحالة وفقاً لقانون التوازن الاجتماعي.»

قرأ الرسالة مرتين. لم يشعر بدهشة كبيرة. فقط بشيء يشبه البرودة التي تنتشر في الصدر ببطء.

في القطار العائد، جلس وحيداً هذه المرة. الرجل المسن الذي حاول محادثته أمس لم يكن موجوداً. النافذة كانت تعكس وجهه الشاحب تحت أضواء المدينة.

تذكر فجأة الحادثة الأولى قبل سبعة أشهر: زميلة جاءت إليه تبكي بعد وفاة قطتها الآلية، وهو اكتفى بقوله «الوقت يشفي». والحادثة الثانية: عندما رفض مشاركة تفاصيل عن إجازة عائلية في جلسة مشابهة. والثالثة: عندما مرّ بزميل يجلس على الدرج ويبكي بصمت، فلم يتوقف.

والآن الرابعة.

أغلق عينيه لحظة. ثم فتحهما. المدينة كانت تمر أمامه كأنها فيلم صامت.

عندما وصل إلى الشقة، وجد رسالة جديدة على الشاشة الرئيسية. هذه المرة كانت رسمية أكثر:

«المواطن كريم حسن مطلوب للمثول أمام لجنة التحقيق العاطفي غداً الساعة التاسعة صباحاً. عدم الحضور يُعد مخالفة إضافية.»

وقف أمام الشاشة طويلاً. الضوء الأزرق ينعكس على وجهه. لم يمدّ يده ليطفئها فوراً.

همس لنفسه، بصوت خافت هذه المرة:

«أربع مرات..»

ثم أغلق الشاشة، ودخل غرفة النوم دون أن يضيء النور.

الفصل الثالث

الاستدعاء

في الصباح التالي، استيقظ كريم قبل المنبّه. الغرفة كانت غارقة في صمت كثيف، والضوء الرمادي ينسل من الستائر الذكية التي لم تُفتح بعد. نظر إلى السقف طويلاً، ثم نهض ببطء كمن يحمل وزناً غير مرئي على كتفيه.

ارتدى البدلة نفسها. لم يأكل شيئاً. فقط شرب كوباً من الماء البارد وخرج.

في الشارع، بدا كل شيء أكثر وضوحاً من المعتاد. وجوه المارة، أصوات الخطوات، رائحة المطر الصناعي الخفيفة. شعر أنه يمشي داخل زجاج شفاف يفصله عن العالم دون أن يمنعه من رؤيته.

مبنى «لجنة التحقيق العاطفي» كان أبيض ناصعاً، بلا نوافذ ظاهرة، كأنه قطعة من السحاب هبطت على الأرض. عند المدخل، وقف روبوت طويل نحيل بوجه أملس بلا ملامح. صوته جاء هادئاً ومعدنياً في الوقت نفسه:

«المواطن كريم حسن. القاعة الرابعة. الطابق الثاني.»

صعد الدرج الكهربائي. الممرات كانت فارغة تقريباً، والجدران تعرض جملاً مضيئة تدور ببطء:

«التعاطف واجب حضاري.»

«العزلة اختيار يعاقب عليه القانون.»

«التوازن يحفظ المجتمع.»

القاعة الرابعة كانت صغيرة ومستطيلة. في وسطها طاولة بيضاء لامعة، وخلفها شاشة كبيرة تعرض صورته الشخصية وتاريخه السلوكي. جلس على الكرسي المعدني البارد.

بعد دقيقة، دخل روبوتان. أحدهما يحمل لوحة إلكترونية شفافة، والآخر يقف خلفه مباشرة. الروبوت الأول تكلم:

«جلسة تحقيق أولية في القضية رقم ٤١٧-ب. جريمة الجفاء المتكرر. أربع مخالفات مسجلة خلال سبعة أشهر.»

ظهرت على الشاشة تسجيلات قصيرة: المشهد في الاجتماع الأخير، ثم المشهد مع الزميلة التي بكت على قطتها، ثم اللحظة التي مرّ فيها بياسر وهو يجلس على الدرج. كل تسجيل مصحوب بتحليل صوتي وتعبيري: «نبرة منخفضة – غياب علامات التعاطف الجسدية – مدة التفاعل أقل من الحد الأدنى المطلوب.»

الروبوت تابع:

«وفقاً لقانون التوازن العاطفي الصادر عام ٢٠٩١، يُعتبر الامتناع المتكرر عن تقديم الدعم العاطفي المطلوب سلوكاً مضراً بالنسيج الاجتماعي. هل لديك ما تقوله؟»

كريم نظر إلى اللوحة الشفافة، ثم إلى وجه الروبوت الأملس.

«لم أؤذِ أحداً. لم أشتم أحداً. فقط لم أكن قادراً على... المشاركة في تلك اللحظات.»

الروبوت سجل الجملة فوراً. ظهرت كلمات حمراء صغيرة على الشاشة: «اعتراف جزئي – غياب الندم الواضح.»

الروبوت الثاني تقدم خطوة.

«النظام لا يحاسب على الأذى المباشر فقط. يحاسب على الغياب. غياب اليد التي تُمدّ، وغياب الكلمة التي تُقال، وغياب النظرة التي تُشعر الآخر بأنه مرئي.»

صمت. ثم أضاف:

«هل تشعر بالندم الآن؟»

كريم فكر لحظة. الحقيقة أنه لم يكن يشعر بندم حاد. كان يشعر بتعب غامض، وبشيء يشبه الاستسلام.

قال بصوت منخفض:

«أنا آسف إذا تسببت في إزعاج أحد.»

الروبوت الأول حرك رأسه حركة طفيفة.

«الإجابة غير كافية. سيتم رفع الملف إلى القاضي الروبوت خلال أربع وعشرين ساعة. يُمنع مغادرة المدينة حتى صدور الحكم. يمكنك العودة إلى منزلك الآن.»

خرج كريم من القاعة. في الممر، رأى رجلاً آخر يجلس على كرسي الانتظار، رأسه بين يديه. الرجل رفع عينيه لحظة، فتلاقى نظرهما. كلاهما حول وجهه بسرعة.

في الخارج، كانت السماء قد صفت. الشمس الصناعية ساطعة أكثر من اللازم. كريم سار ببطء نحو محطة القطار. على ساعته ظهرت رسالة جديدة من النظام:

«تم تصنيف حالتك: قيد التحقيق الجنائي العاطفي. مستوى المراقبة مرتفع.»

رفع رأسه. كاميرا صغيرة على عمود الإنارة كانت تدور ببطء وتتبعه. ثم أخرى على سطح مبنى قريب. ثم ثالثة في الزاوية.

شعر فجأة أن المدينة كلها أصبحت عيوناً مفتوحة عليه.

في القطار، جلس في المقعد الأخير. لم ينظر إلى أحد. أخرج هاتفه ثم أعاده إلى جيبه دون أن يفتحه. تذكر جملة الروبوت:

«الغياب يُعاقب عليه.»

همس لنفسه، هذه المرة بصوت مسموع قليلاً وسط ضجيج القطار:

«إذن أنا كنت غائباً طوال الوقت...»

ونظر من النافذة إلى المدينة التي كانت تمر بسرعة، كأنها تهرب منه أو هو يهرب منها.

الفصل الرابع

القاضي

قاعة المحكمة كانت أكبر مما تخيل. سقف مرتفع جداً، وجدران بيضاء ناصعة تعكس الضوء من كل جهة حتى لا يبقى ظل واحد. في الوسط منصة دائرية مرتفعة، وعليها الكرسي الأسود للقاضي الروبوت. خلفه شاشة عملاقة تعرض شعار «محكمة التوازن الاجتماعي» ودائرة زرقاء تدور ببطء.

كريم جلس على الكرسي المخصص للمتهم. لم يكن هناك محامٍ بشري. النظام يوفر «مدافعاً آلياً» اختيارياً، لكنه رفضه في الليلة السابقة بجملة قصيرة سجلها الروبوت: «سأدافع عن نفسي».

دخل القاضي. جسده معدني مصقول، ووجهه شاشة ناعمة تعرض ملامح محايدة تتغير قليلاً حسب السياق. جلس. صوته جاء واضحاً وعميقاً، بلا نبرة غضب أو شفقة:

«تُفتح الجلسة في القضية رقم ٤١٧-ب. المتهم: المواطن كريم حسن، من مواليد ٢٠٧٩. التهمة: الجفاء المتكرر وفقاً للمادة ١٧ من قانون التوازن العاطفي.»

ظهرت على الشاشة الجانبية نصوص قانونية:

«المادة ١٧: يُعد الامتناع المتعمد أو المتكرر عن تقديم التفاعل العاطفي المطلوب في السياقات الاجتماعية المحددة جريمة ضد النسيج الجماعي. العقوبة: الاختفاء الاجتماعي لمدة تتراوح بين ستة أشهر وثلاث سنوات حسب عدد المخالفات ودرجة الضرر.»

القاضي تابع:

«سُجلت أربع مخالفات موثقة خلال سبعة أشهر. التسجيلات معروضة الآن.»

بدأت المقاطع. كريم شاهد نفسه من زوايا مختلفة: في الاجتماع وهو يقول «ليس لدي ما أشارك به»، ثم وهو يمر بياسر على الدرج دون أن يتوقف، ثم المشهد القديم مع الزميلة التي بكت. كل مقطع مصحوب بتحليل رقمي دقيق لنبرته وتعبيرات وجهه ومدة الصمت.

بعد انتهاء التسجيلات، التفت القاضي إليه:

«هل تقر بالتهمة؟»

كريم وقف. شعر أن ركبتيه خفيفتان أكثر من اللازم.

«أقر بأنني لم أتصرف كما هو مطلوب. لكنني لم أقصد الإيذاء. لم أكن قادراً...»

قاطعه القاضي بهدوء:

«القدرة ليست محل نقاش هنا. السلوك هو محل النقاش. هل قدمتَ الدعم العاطفي المطلوب في المواقف الأربعة؟»

«لا.»

«هل أظهرتَ علامات التعاطف الجسدية أو اللفظية الكافية؟»

«لا.»

«هل تعتقد أن غيابك العاطفي لم يترك أثراً على الآخرين؟»

صمت كريم لحظة. ثم قال بصوت أقل:

«لا أعرف.»

القاضي سجل الإجابة. ظهرت كلمات على الشاشة: «غياب الندم الكافي – اعتراف بالفعل دون إدراك كامل للضرر.»

صوت آخر انبعث من السقف، صوت المدافع الآلي الاحتياطي الذي يعمل حتى لو رُفض:

«يمكن للمتهم أن يطلب تخفيف العقوبة إذا أثبت ظروفاً مخففة: صدمة نفسية سابقة، أو اضطراب عاطفي مسجل، أو ضغوط عمل استثنائية.»

كريم فكر في والده. في الغرفة المظلمة. في الجملة التي قالها قبل سبع سنوات. ثم هز رأسه.

«لا أطلب تخفيفاً.»

القاضي انتظر ثلاث ثوانٍ بالضبط، ثم نطق بالحكم:

«بناءً على الأدلة المقدمة، واعتراف المتهم، وغياب الظروف المخففة المقبولة، تُقرر المحكمة إدانة المواطن كريم حسن بجريمة الجفاء المتكرر. العقوبة: الاختفاء الاجتماعي لمدة عام كامل، تبدأ من لحظة وضع العلامة وتنتهي في الحادي عشر من مايو من العام القادم.»

صمت القاعة. ثم أضاف القاضي:

«خلال فترة العقوبة، يُمنع على أي مواطن أو روبوت خدمات بشرية التعامل معك أو الاعتراف بوجودك. الآلات الأساسية فقط مسموح لها بخدمتك. أي محاولة تواصل من طرفك مع بشر آخرين تُعد مخالفة جديدة. أي محاولة من بشر للتعامل معك تُعرضهم للعقوبة نفسها.»

رفع كريم رأسه.

«هل يمكنني أن أسأل شيئاً؟»

«تكلم.»

«لماذا... لماذا هذه العقوبة بالذات؟ لماذا لا تكون غرامة أو سجناً عادياً؟»

القاضي نظر إليه بعينيه الإلكترونيين الهادئتين.

«لأن السجن يُبقيك مرئياً. والغرامة لا تعلّم. أما الاختفاء... فيجعلك تجرب ما فعلته بالآخرين. أن تصبح غير موجود.»

ثم قام.

«الجلسة مرفوعة. يتم تنفيذ الحكم فوراً.»

باب جانبي انفتح. روبوتان تقدما نحوه. أحدهما يحمل صندوقاً معدنياً صغيراً لامعاً.

كريم نظر إلى الصندوق، ثم إلى الشاشة التي ما زالت تعرض صورته، ثم إلى القاضي الذي كان يغادر المنصة بالفعل.

شعر أن الأرض تحت قدميه أصبحت أرق مما ينبغي.

الفصل الخامس

العلامة

نزل الروبوتان به في مصعد ضيق بلا نوافذ. المصعد كان يهبط ببطء شديد، كأن الزمن نفسه يتردد. الضوء أصفر باهت، والجدران معدنية باردة تلامس كتفيه كلما تنفس.

عندما توقفت الحركة، انفتح الباب على ممر طويل مضاء بمصابيح بيضاء قاسية. في نهايته غرفة مربعة صغيرة، جدرانها من معدن رمادي مصقول، بلا كراسي وبلا طاولة. فقط مرآة طويلة مثبتة في الجدار المواجه، وصندوق معدني في الوسط على حامل منخفض.

الروبوت الأول قال:

«ادخل. اخلع قميصك.»

كريم امتثل. الهواء داخل الغرفة كان بارداً أكثر من الممر. وقف عاري الصدر أمام المرآة. رأى جسده النحيل، وخطوط أضلاعه الخفيفة، والندبة الصغيرة القديمة تحت ترقوته اليسرى من حادث طفولة نسيه تقريباً.

الروبوت الثاني فتح الصندوق. داخله أداة تشبه القلم الطويل، طرفها يتوهج بنور أزرق باهت. بجانبها قطعة شفافة رقيقة كغشاء.

«ابقَ ثابتاً. العملية تستغرق ثماني وأربعين ثانية. ستشعر بحرارة خفيفة ثم وخز.»

اقترب الروبوت. رفع القلم نحو جبهة كريم. الضوء الأزرق انعكس في عينيّ الروبوت ثم على جلد الجبهة.

بدأ اللمس.

حرارة خفيفة أولاً، كأنها شمس صغيرة تتركز في نقطة واحدة. ثم تحولت الحرارة إلى وخز حاد يسري تحت الجلد كإبرة دقيقة تتحرك في دوائر. كريم أطبق أسنانه. لم يصدر صوتاً. فقط أغمض عينيه لحظة ثم فتحهما من جديد.

الروبوت كان يعمل بدقة آلية. الخطوط تتشكل على الجبهة: دائرة صغيرة في الوسط، وحولها خطوط رفيعة متشابكة تشبه شبكة أو قفلاً قديماً. اللون كان فضيّاً داكناً في البداية، ثم بدأ يتحول تدريجياً إلى أسود لامع كأنه حبر حي.

«انتهى.»

تراجع الروبوت. كريم رفع يده ببطء ولمس جبهته. الجلد كان ساخناً قليلاً، والعلامة بارزة تحت أصابعه كأنها شيء غريب زرع فوق عظامه.

الروبوت الأول أشار إلى المرآة:

«انظر.»

اقترب كريم. في المرآة رأى وجهه كما لم يره من قبل. العلامة كانت واضحة تماماً في منتصف الجبهة، سوداء لامعة، تتوهج خفقة خفيفة كلما تحرك الضوء. بدت كأنها ليست على الجلد بل تحتها، كأنها جزء جديد من وجهه.

نظر طويلاً. حاول أن يبتسم. الابتسامة جاءت مشوهة تحت العلامة. حاول أن يعبس. العبوس بدا أكثر حدة.

الروبوت الثاني قال بصوت خالٍ من أي نبرة:

«من هذه اللحظة أنت غير مرئي اجتماعياً. البشر لن يعترفوا بوجودك. الروبوتات الخدمية الأساسية فقط ستتعامل معك. المدة: ثلاثمئة وخمسة وستون يوماً. تنتهي في الحادي عشر من مايو ٢١٠٥.»

ثم أضاف:

«يمكنك ارتداء قميصك. الباب مفتوح.»

كريم ارتدى قميصه ببطء. أزرار القميص بدت أصعب من المعتاد. عندما انتهى، نظر مرة أخيرة إلى المرآة. العلامة كانت ما تزال هناك، واضحة، لا يمكن تغطيتها بشعر أو قبعة. النظام يمنع أي تغطية.

خرج من الغرفة. الممر كان فارغاً. المصعد كان في انتظاره. صعد وحده.

عندما خرج من مبنى المحكمة إلى الشارع، كانت الشمس في وسط السماء. الناس يمرون حوله كالمعتاد. امرأة تمسك بيد طفلها اقتربت منه ثم انحرفت فجأة كأنما تجنبت عموداً غير مرئي. رجل ينظر في هاتفه مرّ بجواره على بعد سنتيمترات دون أن يرفع عينيه.

كريم وقف في مكانه. رفع يده ولوّح بها أمام وجه رجل يمر. الرجل لم يلتفت.

شعر فجأة أن الهواء نفسه أصبح أثقل.

لمس جبهته من فوق القميص. العلامة كانت دافئة تحت أصابعه.

همس، بصوت لم يسمعه أحد:

«الآن... بدأت.»

ومشى.

الفصل السادس

أول يوم

الشارع كان يعج بالحركة كأي صباح عادي. السيارات الطائرة تمر في مساراتها المنتظمة، وأصوات الخطوات تختلط بأحاديث منخفضة، ورائحة القهوة المنبعثة من المقاهي الآلية تتسلل في الهواء.

كريم وقف على الرصيف أمام مبنى المحكمة دقيقة كاملة دون أن يتحرك. العلامة على جبهته كانت ما تزال دافئة. لمسها مرة أخرى من فوق الجلد، كمن يتأكد أنها حقيقية.

ثم خطا الخطوة الأولى.

رجل طويل يمسك بحقيبة جلدية كان قادماً في الاتجاه المعاكس. كريم انحرف قليلاً ليتفاداه كعادته. الرجل انحرف أيضاً... لكن في الاتجاه نفسه، وكاد أن يصطدم به. في اللحظة الأخيرة مال الرجل بجسده دون أن يرفع عينيه عن هاتفه، ومرّ كأن كريم مجرد عمود هواء.

كريم توقف. التفت خلفه. الرجل كان يبتعد بخطوات سريعة منتظمة.

سار بضع خطوات أخرى. اقترب من مجموعة من الموظفين ينتظرون الإشارة الضوئية. وقف بينهم. أحدهم ضحك على شيء في شاشته، والتفت إلى زميله وهو يتحدث. كتف الرجل لامست كتف كريم. الرجل انزاح نصف خطوة دون أن ينظر، وأكمل حديثه.

الإشارة تحولت إلى أخضر. الجميع تحرك. كريم بقي في مكانه لحظة إضافية، ثم تبعهم.

في الجانب الآخر من الشارع، رأى مقهى صغيراً يعرفه. كان يجلس فيه أحياناً قبل العمل. اقترب من الباب الزجاجي. الباب انفتح أوتوماتيكياً. دخل.

الروبوت النادل اقترب فوراً:

«مرحباً. ماذا تطلب؟»

الصوت كان عادياً، مهذباً. كريم شعر بشيء يشبه الامتنان المفاجئ.

«قهوة سوداء... بدون سكر.»

الروبوت أومأ وابتعد. كريم جلس على طاولة قرب النافذة. بعد دقيقة جاء الروبوت بالفنجان ووضعه أمامه. لم يقل شيئاً إضافياً.

بينما كان يشرب، دخلت امرأة ورجل. جلسا على الطاولة المجاورة. المرأة كانت تتحدث عن رحلة قادمة، والرجل يضحك. في لحظة ما، التفتت المرأة قليلاً في اتجاه كريم. عيناها مرتا على وجهه... ثم على العلامة. ثم أكملت حديثها كأن الطاولة فارغة.

كريم أبطأ في شرب القهوة. راقبها. راقب الرجل. راقب الزبائن الآخرين. لا أحد ينظر إليه. لا أحد يتجنبه بشكل واضح أيضاً. فقط... يتعاملون معه كأنه غير موجود في الحيز البصري والاجتماعي معاً.

أنهى القهوة. قام. الروبوت قال وهو يمر بجانبه:

«يوم سعيد.»

خارج المقهى، وقف على الرصيف وأخذ نفساً عميقاً. الهواء دخل إلى رئتيه بارداً. رفع يده ولوّح بها أمام وجه شاب يمر. الشاب لم يرمش. لوّح مرة أخرى أقرب. لا شيء.

سار نحو الحديقة القريبة. الأطفال يلعبون في المساحة الخضراء. امرأة تدفع عربة طفل. كريم مرّ بجوارها على بعد ذراع. المرأة همست لطفلها شيئاً وضغطت على العربة أسرع قليلاً، دون أن تلتفت إليه.

جلس على مقعد خشبي. بعد قليل جاء رجل مسن وجلس على الطرف الآخر من المقعد نفسه. أخرج كتاباً ورقياً قديماً وبدأ يقرأ. كريم نظر إليه. الرجل قلب الصفحة. كريم قال بصوت واضح:

«صباح الخير.»

الرجل لم يتحرك. قلب صفحة أخرى.

كريم كرر، أعلى هذه المرة:

«صباح الخير...»

لا إجابة. فقط صوت الورق وهو يُقلَب.

شعر بضيق مفاجئ في صدره. قام من المقعد ومشى بسرعة. الخطوات أصبحت أسرع. الناس ينحرفون عنه في اللحظة الأخيرة دون أن ينظروا، كأن أجسادهم تعرف بوجوده بينما عقولهم ترفض الاعتراف.

وصل إلى الشقة. الباب فتح له كالمعتاد. دخل. أغلقه خلفه. استند إلى الجدار لحظة، ثم مشى إلى المرآة في المدخل.

العلامة كانت هناك. سوداء، لامعة، واضحة في منتصف جبهته. لمسها بأصابعه. كانت باردة الآن.

نظر إلى عينيه في المرآة. همس:

«يروني... ولا يروني.»

ثم أطفأ النور، وجلس على الأريكة في الظلام، يستمع إلى صوت المدينة البعيد الذي لم يعد يخصه.

الفصل السابع

الحدائق والمطعم

في الصباح التالي، استيقظ كريم متأخراً. لا منبّه هذه المرة. الضوء الرمادي يملأ الغرفة، والصمت أثقل من الليلة السابقة. نهض، غسل وجهه، وتجنب النظر طويلاً في المرآة. العلامة كانت ما تزال هناك، سوداء وواضحة، كأنها تبتسم له ببرود.

خرج دون أن يأكل. الشارع كان يعج بالحركة الصباحية المعتادة. الناس يمرون، ينحرفون، يتحدثون، يضحكون. هو يمشي وسطهم كقطعة شفافة من الهواء.

تذكر الحدائق المعلقة في القطاع الغربي. كانت تطلب تذكرة باهظة الثمن، وكان يمر بها أحياناً ويتمنى الدخول. الآن... ربما يستطيع.

ركب القطار. جلس في مقعد فارغ. رجل جاء ووقف بجانبه لحظة، ثم اختار مقعداً آخر في الطرف البعيد. كريم لم يأبه. نزل في المحطة المطلوبة.

الحدائق المعلقة كانت ترتفع فوق المدينة كطبقات خضراء معلقة في السماء. الجسر الواصل إليها مزدان بنباتات متسلقة وزهور تضيء ليلاً. عند البوابة وقف روبوت تذاكر طويل.

كريم اقترب. الروبوت مسح العلامة على جبهته ضوئياً ثم قال بصوت هادئ:

«الدخول مجاني لحاملي علامة الاختفاء. تفضل.»

الباب انفتح. كريم دخل.

الهواء داخل الحدائق كان مختلفاً. رطباً، محملاً بروائح التربة والأزهار النادرة. أشجار عالية ذات أوراق فضية، وشلالات صغيرة تسقط من طبقات إلى أخرى، وممرات خشبية معلقة فوق الفراغ. الناس يتجولون في مجموعات أو أزواجاً، يلتقطون صوراً، يجلسون على المقاعد الثرية.

كريم سار ببطء. مرّ بجانب عائلة تلتقط صورة تذكارية. الأب حرّك يده في الهواء ليعدل زاوية الكاميرا، وكادت تصطدم بوجه كريم. الأب لم يلاحظ. أكمل التعديل والتقط الصورة.

جلس كريم على مقعد خشبي تحت شجرة كبيرة. أغمض عينيه. صوت الماء والرياح الخفيفة بين الأوراق كان مهدئاً. لأول مرة منذ وضع العلامة شعر بشيء يشبه الراحة.

بعد ساعة قام. سار نحو المخرج. الروبوت عند البوابة قال:

«نأمل أن تكون استمتعت.»

كريم أجاب بصوت منخفض:

«نعم... شكراً.»

الروبوت أومأ. البشر حوله لم يلتفتوا.

في الظهيرة، قرر أن يجرب شيئاً آخر. مطعم «الأفق» الفاخر في الطابق المئة والعشرين من برج النور. كان يمر به أحياناً ويرى الأسعار الخيالية في القائمة الخارجية.

صعد المصعد الزجاجي. المدينة تتقلص تحت قدميه. عند المدخل استقبله روبوت أنيق ببدلة سوداء:

«مرحباً. طاولة لشخص واحد؟»

«نعم.»

الروبوت قاده إلى طاولة بجانب النافذة البانورامية. المدينة كلها كانت تحتهم كخريطة مضيئة. أحضر له قائمة إلكترونية. كريم اختار طبقاً باهظاً لم يكن يحلم بطلبه من قبل.

الطعام جاء سريعاً. الروبوت وضع الصحن أمامه بدقة، وملأ كأس الماء، ثم ابتعد. كريم بدأ يأكل. الطعم كان ممتازاً. بينما هو يأكل، جاءت مجموعة من أربعة أشخاص وجلسوا على الطاولة المجاورة. تحدثوا بصوت مرتفع عن أعمالهم وعن رحلة قادمة إلى المريخ السياحي. أحدهم التفت مرة في اتجاه كريم، رأت عيناه العلامة، ثم عاد إلى حديثه كأن الطاولة فارغة.

كريم راقبهم. راقب كيف يمرر النادل البشري الأطباق بينهم بابتسامات دافئة، وكيف يسألهم إن كانوا بحاجة إلى شيء آخر. عندما مرّ النادل البشري بجانب طاولته، لم يتوقف. لم يسأل. لم ينظر.

الروبوت فقط هو من عاد ليسأله:

«هل كل شيء على ما يرام؟»

كريم نظر إليه.

«نعم... كل شيء على ما يرام.»

بعد أن انتهى، قام. الروبوت قال:

«الحساب مُعفى لحاملي العلامة. يوم سعيد.»

خرج كريم من المطعم. في المصعد الزجاجي النازل، رأى انعكاسه باهتاً على الجدار الشفاف. العلامة تلمع تحت الضوء.

في الشارع من جديد، مشى وسط الزحام. الناس ينحرفون، الآلات تخدمه، والبشر... يتجاهلونه تماماً.

رفع يده ولامس العلامة. همس لنفسه وسط الضجيج الذي لا يسمعه أحد:

«الآلات تراني... والناس لا.»

ثم ابتسم ابتسامة صغيرة مريرة، وأكمل طريقه نحو لا مكان محدد.

الفصل الثامن

روتين جديد

بعد ثلاثة أيام من وضع العلامة، بدأ كريم يكتشف إيقاعاً جديداً لحياته.

استيقظ في العاشرة. لا حاجة للاندفاع. لا اجتماعات، لا رسائل عمل، لا مكالمات. النظام أوقف حسابه الوظيفي تلقائياً في اليوم الأول، وحول راتبه إلى «منحة اختفاء» شهرية تكفي للبقاء دون ترف.

في المطبخ الآلي طلب إفطاراً بسيطاً: خبزاً محمصاً وبيضاً وقهوة. الآلة أعدت كل شيء في صمت، ووضعت الصحن على الطاولة الصغيرة. جلس وأكل ببطء. الشقة كانت هادئة أكثر من أي وقت مضى. حتى صوت المدينة خارج النوافذ بدا بعيداً، كأنه يأتي من عالم آخر.

بعد الإفطار خرج. في الشارع سار نحو مطعم آلي يعرفه من زمن العمل. المطاعم الآلية لم تكن ترفضه. الروبوت خلف المنصة مسح العلامة ضوئياً ثم قال:

«مرحباً. القائمة جاهزة. اليوم العرض على الوجبات الخفيفة.»

طلب شطيرة وعصيراً. جلس في زاوية. الناس يدخلون ويخرجون. بعضهم يقف بجانبه في الطابور دون أن يلحظوه. امرأة وضعت حقيبتها على الكرسي المجاور لكرسيه ثم أخذتها بسرعة حين اقتربت منه أكثر، كأنها شعرت بشيء دون أن تراه.

أكل وانتهى. الروبوت قال وهو يمر:

«شكراً لزيارتك.»

خارج المطعم، لمح سيارة أجرة طائرة متوقفة. اقترب. الباب انفتح تلقائياً. الصوت الداخلي الهادئ قال:

«وجهة؟»

«أي مكان... فقط سر.»

السيارة أقلعت. المدينة انخفضت تحتها. كريم جلس في المقعد الخلفي ونظر من النافذة. الشوارع والناس والأبراج تمر كصور باهتة. بعد عشرين دقيقة طلب التوقف عند حديقة صغيرة في حي قديم. نزل. السيارة قالت:

«الرحلة مجانية لحاملي العلامة. يوم سعيد.»

في الحديقة جلس على مقعد حجري. أخرج جهاز القراءة المرئي من جيبه. فتح كتاباً قديماً كان قد بدأ قراءته قبل أسابيع: رواية عن رحلة إلى أطراف المجرة. الكلمات ظهرت في الهواء أمامه بخط واضح. قرأ صفحة. ثم ثانية. ثم وجد عينيه تتركان السطور وتتجولان في الوجوه التي تمر.

رجل وامرأة يمشيان ممسكين بأيدي بعضهما. طفل يركض خلف كرة طائرة صغيرة. عجوز يطعم طيوراً آلية تبدو كالعصافير.

أعاد تركيزه إلى الكتاب. السطور كانت واضحة، لكن المعنى كان يتسرب. كان يقرأ الكلمات دون أن يدخلها. بعد نصف ساعة أغلق الجهاز.

قام ومشى. بلا هدف محدد. مرّ أمام محلات، ومبانٍ، ومحطات. في أحد الشوارع الجانبية رأى رجلاً يجلس على الأرض ويسأل المارة عن شيء. الناس يمرون به مسرعين. كريم توقف لحظة. الرجل رفع رأسه في اتجاهه، ثم خفضه بسرعة كأنما رأى ظلاً مزعجاً.

كريم ابتعد.

في المساء عاد إلى الشقة. الأضواء أضاءت وحدها. طلب من المطبخ الآلي عشاءً خفيفاً. أكل أمام الشاشة الكبيرة التي عرضت نشرة أخبار صامتة. الصور تمر: افتتاح مجمع سكني جديد، انخفاض في معدلات الجرائم العاطفية، إعلان عن برنامج سياحي للقمر.

لم يسمع الصوت. لم يكن يريد أن يسمع.

بعد العشاء جلس على الأريكة. حاول مرة أخرى أن يقرأ. فتح الكتاب نفسه. السطور ظهرت. نظر إليها طويلاً دون أن يقلب الصفحة.

في النهاية أطفأ كل شيء. الغرفة غرقت في الظلام. استلقى على ظهره وحدّق في السقف الأسود.

لا أحد ينتظر رسالته.

لا أحد يسأل لماذا لم يأتِ إلى العمل.

لا أحد يطرق الباب.

العلامة على جبهته كانت باردة الآن. لمسها في الظلام بأصابعه.

همس لنفسه، والصوت بدا غريباً في الصمت:

«هذا هو الروتين... كل يوم.»

ثم أغلق عينيه، محاولاً أن ينام قبل أن يطول الليل أكثر.

الفصل التاسع

الآخر

في اليوم السادس، خرج كريم مبكراً أكثر من المعتاد. السماء كانت صافية، والشمس الصناعية تشرق بزاوية حادة تجعل الظلال طويلة وحادة على الأرصفة.

سار بلا هدف محدد، كعادته الجديدة. مرّ بالحدائق الصغيرة، ثم بالأسواق الآلية، ثم وجد نفسه في حي قديم نسبياً، حيث المباني أقل ارتفاعاً والشوارع أضيق. هنا كان الزحام أخف، والوجوه أقل استعجالاً.

عند زاوية شارع هادئ، توقفت قدماه فجأة.

على الرصيف المقابل، كان رجل يقف منتصباً وينظر مباشرة إليه.

الرجل كان في الأربعين تقريباً، نحيل، يرتدي معطفاً رمادياً قديماً. وعلى جبهته... علامة سوداء لامعة، مطابقة تماماً لعلامته.

للمرة الأولى منذ وضع العلامة، شعر كريم أن أحداً يراه حقاً.

حدّق الرجل فيه. وكريم حدّق أيضاً. الثواني مرت بطيئة. بينهما مسافة خمسة أمتار فقط، لكن الشارع بدا فجأة أوسع وأفرغ.

كريم فتح فمه. الكلمات كانت على طرف لسانه: «أنت أيضاً...؟» أو «منذ متى؟» أو أي شيء.

لكن الرجل حرك رأسه حركة صغيرة وسريعة، كأنه يحذر. ثم حول عينيه فجأة إلى الأرض، وأدار جسده، وبدأ يمشي مسرعاً في الاتجاه المعاكس.

كريم تحرك دون تفكير. عبر الشارع خلفه. الرجل أسرع أكثر. كريم زاد خطوته. في الزقاق الجانبي الضيق لحق به تقريباً.

«انتظر...» قال كريم بصوت مسموع.

الرجل توقف فجأة، لكن دون أن يلتفت. صوته جاء منخفضاً ومبحوحاً، كمن يتحدث منذ زمن طويل إلى نفسه فقط:

«لا. ممنوع.»

«أنا مثلك... انظر.»

الرجل هز رأسه بقوة، وما زال ظهره إليه.

«ممنوع حتى بيننا. الكاميرات... الروبوتات... أي تواصل يُسجَّل. يعاقبون الاثنين.»

ثم أضاف بعد صمت قصير، بصوت أخفض:

« commth شهراً... لا تقترب من أحدنا. ابتعد.»

ومشى. هذه المرة بسرعة أكبر، حتى اختفى خلف زاوية المبنى التالي.

كريم بقي واقفاً في الزقاق. قلبه يضرب بقوة أشد مما كان يضرب في أيام العمل الأولى. رفع رأسه. في أعلى الجدار المقابل، كانت كاميرا صغيرة تدور ببطء في اتجاهه، ثم تتوقف.

شعر فجأة أن العلامة على جبهته أصبحت أثقل.

خرج من الزقاق إلى الشارع الرئيسي. الناس يمرون كالعادة، ينحرفون، يتجاهلون. لكنه الآن كان يعرف أن هناك آخرين مثله... وأن حتى هؤلاء الآخرين ممنوع عليهم أن يكونوا مرئيين لبعضهم.

جلس على أقرب مقعد. وضع يديه على ركبتيه. تذكر عيني الرجل النحيل: لم تكن فارغة تماماً. كان فيها شيء يشبه الخوف... أو التعب القديم.

همس لنفسه:

«حتى نحن... لا نقدر أن نرى بعضنا.»

ثم رفع رأسه ونظر إلى المارة الذين لا يرونه، وشعر أن العزلة التي ظنها كاملة... كانت للتو تزداد عمقاً.

الفصل العاشر

اختبار الحدود

في الليلة التاسعة، قرر كريم أن يجرب شيئاً مختلفاً.

خرج من الشقة بعد منتصف الليل. الشوارع كانت شبه فارغة، إلا من سيارات التنظيف الآلية التي تمر ببطء وتطلق رذاذ الماء على الأرصفة. السماء فوقه كانت مبرمجة على مطر خفيف متقطع، قطرات باردة تسقط على كتفيه ووجهه وتبلل العلامة على جبهته.

سار نحو الحي التجاري القديم، حيث المباني العالية تخلق ممرات ضيقة طويلة. هناك، تحت الأضواء الخافتة، توقف في منتصف الشارع.

نظر حوله. لا أحد. فقط كاميرا بعيدة على عمود، وروبوت تنظيف يتحرك في الطرف الآخر.

أخذ نفساً عميقاً. ثم صرخ.

الصوت خرج أعلى مما توقع، خاماً ومبحوحاً من قلة الاستخدام:

«أنا هنا!»

الصدى ارتد من الجدران الزجاجية. الروبوت البعيد توقف لحظة ثم واصل عمله. الكاميرا لم تتحرك.

كريم صرخ مرة ثانية، أقوى:

«هل تسمعونني؟ أنا موجود!»

لا إجابة. فقط صوت المطر الناعم وهو يضرب المعدن والإسفلت.

بدأ يضحك. ضحكة قصيرة أولاً، ثم أطول. مشى بضع خطوات وهو يرفع يديه في الهواء ويشير إلى المباني المظلمة.

«أنتم هناك في الأعلى... تنامون في شققكم الدافئة. وأنا هنا. غير مرئي. حر.»

اقترب من واجهة محل كبيرة مغلقة. نظر إلى انعكاسه الباهت في الزجاج: رجل مبتل، علامة سوداء تلمع على جبهته تحت المطر. رفع يده ولوّح لانعكاسه.

«مرحباً يا كريم... كيف حالك اليوم؟»

ثم التفت إلى الشارع الفارغ وصاح ساخراً:

«أيها الناس الطيبون! هل تريدون أن تشاركوا مشاعركم؟ هل تريدون جلسة توازن عاطفي الآن؟ أنا جاهز. تعالوا.»

الضحك عاد، لكن هذه المرة كان فيه شيء حاد. ركض بضع خطوات، ثم توقف فجأة تحت عمود إنارة. رفع رأسه وترك المطر يسقط مباشرة على وجهه.

شعر بلذة غريبة قصيرة. لذة أن يصرخ دون أن يقاطعه أحد، أن يسخر دون أن يغضب أحد، أن يكون موجوداً بقوة الصوت فقط بينما العالم كله يرفض الاعتراف به.

بعد دقائق طويلة، هدأ. التنفس أصبح أسرع، والصدر يرتفع وينخفض تحت القميص المبلل. نظر إلى يديه اللتين ترتجفان قليلاً.

اللذة بدأت تتلاشى. حل محلها فراغ مألوف، أبرد من المطر.

سار ببطء عائداً. خطواته تترك آثاراً مبللة على الرصيف سرعان ما تمحى تحت الرذاذ. في الطريق مرّ بروبوتي تنظيف. الروبوت قال بصوت رتيب:

«انتبه للسطح الزلق.»

كريم أجاب دون أن ينظر:

«شكراً... على الأقل أنت ترد.»

عندما وصل إلى الشقة، دخل وترك الماء ينزل من ملابسه على الأرض. وقف أمام المرآة في المدخل. الوجه مبتل، والعلامة تلمع كأنها غسلت للتو.

نظر إلى عينيه طويلاً. ثم همس بصوت خافت، كأنه يكمل حديثاً بدأ في الشارع:

«صرخت... ولم يسمع أحد.»

أطفأ النور. جلس على الأرض مستنداً إلى الجدار، وسمع صوت المطر خلف النافذة وهو يزداد قليلاً ثم يهدأ، كأنه يعتذر عن شيء لم يفعله.

الفصل الحادي عشر

المرض

في الليلة الرابعة عشرة، استيقظ كريم على ألم حاد في معدته.

الألم جاء فجأة، كقبضة تُطبق من الداخل. تبعته حرارة مرتفعة جعلت ملابسه تلتصق بجسده. حاول أن يقوم من الفراش فدارت به الغرفة. استند إلى الحائط حتى وصل إلى الحمام، وشرب ماءً بارداً مباشرة من الصنبور. الماء لم يغيّر شيئاً.

جلس على حافة السرير. الشاشة المنزلية أضاءت تلقائياً حين استشعرت اضطراب علامات جسمه.

«تم رصد ارتفاع في درجة الحرارة وألم بطني. هل تريد الاتصال بالخدمات الطبية؟»

صوته كان مبحوحاً:

«نعم.»

ظهر روبوت طبي على الشاشة، وجهه أملس وصوته هادئ:

«صِف لي الأعراض بدقة.»

«حمى... ألم في المعدة... دوخة.»

الروبوت طلب منه وضع راحة يده على مستشعر صغير في الجدار. بعد ثوانٍ ظهرت النتائج:

«ارتفاع طفيف في مؤشرات الالتهاب. احتمالية التهاب معوي خفيف أو تسمم غذائي بسيط. أنصح بالراحة والسوائل ومسكن آمن. هل تريد وصفة طبية تُرسل إلى الصيدلية الآلية؟»

«نعم.»

بعد دقائق وصلت علبة صغيرة عبر الفتحة المنزلية. تناول الحبة وشرب المزيد من الماء. استلقى. الألم خف قليلاً لكنه لم يختفِ. الحرارة بقيت.

بعد ساعتين، والألم يعود أقوى، طلب اتصالاً بشرياً. النظام رد:

«الطبيب البشري المناوب متاح. جارٍ التحويل.»

ظهرت على الشاشة صورة رجل في الخمسين، يرتدي معطفاً أبيض، خلفية مكتبه مرتبة. ابتسم ابتسامة مهنية:

«مساء الخير. أنا الدكتور سامي. كيف يمكنني مساعدتك؟»

كريم حاول أن يجلس بشكل أفضل. الضوء في الغرفة كان خافتاً.

«لدي حمى وألم شديد في المعدة منذ ساعات. الروبوت أعطاني مسكناً لكن الحالة لم تتحسن كثيراً.»

الطبيب أومأ وبدأ يطرح أسئلة سريعة عن آخر وجبة، وعن أي أعراض أخرى. كريم كان يجيب بصوت ضعيف. في لحظة ما مال إلى الأمام أكثر ليقترب من الكاميرا، فسقط ضوء أصفر من السقف مباشرة على جبهته.

العلامة السوداء ظهرت واضحة.

وجه الطبيب تغيّر في جزء من الثانية. الابتسامة اختفت. عيناه اتسعتا قليلاً ثم ضاقتا. سعل سعلة قصيرة وقال بصوت مختلف تماماً، سريع ومقطوع:

«أعتذر... يبدو أن هناك خطأ في التحويل. الحالة تُحال إلى القسم الآلي.»

الشاشة انطفأت فوراً.

كريم بقي ينظر إلى السواد أمامه. الألم في معدته نبض مرة واحدة بقوة. رفع يده إلى جبهته ولمس العلامة. كانت ساخنة تحت أصابعه من الحمى.

الشاشة أضاءت من جديد بعد دقيقة. الروبوت الطبي ظهر من جديد:

«تم قطع الاتصال البشري وفقاً للبروتوكول. يمكنك متابعة العلاج الآلي. هل تريد زيادة الجرعة؟»

كريم نظر إلى الوجه الأملس على الشاشة. ثم قال بصوت منخفض جداً:

«لا... يكفي.»

أغلق الاتصال. استلقى على ظهره في الظلام. الحرارة تجعل رأسه ثقيلاً، والألم يدور في بطنه كشيء حي.

تذكر صوت الطبيب وهو يتغير في لحظة واحدة. وتذكر كيف انقطعت الشاشة كأن أحداً قطع حبلاً.

همس في الغرفة الفارغة، والصوت جاء مبحوحاً من العطش والحمى:

«حتى وأنت مريض... لا يريدون أن يروك.»

ثم أغلق عينيه، ينتظر أن يمر الليل بأي طريقة ممكنة.

الفصل الثاني عشر

الأحياء السفلية

بعد ثلاثة أسابيع من العلامة، بدأ كريم ينزل إلى الأحياء التي نادراً ما كان يقترب منها من قبل.

الأحياء السفلية كانت تحت مستوى المدينة الرسمي، طبقات قديمة من المباني الإسمنتية والمعدنية المتآكلة، حيث الإضاءة أصفر باهتة والشوارع أضيق، والروبوتات أقل عدداً وأنظفها يبدو قديماً. هنا يعيش من لم يعد النظام يهتم كثيراً بمظهرهم أو بمؤشرات تعاطفهم.

نزل الدرج الحجري الطويل. الهواء أصبح أثقل، مختلطاً برائحة الزيت والرطوبة. الناس هنا يمشون بسرعة أقل، ووجوههم تحمل آثار تعب أقدم.

عند زاوية شارع مظلم، سمع صوتاً مبحوحاً:

«هل من أحد؟...»

رجل مسن يجلس على صندوق خشبي مقلوب. عيناه مغلقتان أو فارغتان، والجلد حولهما متجعد بعمق. يده ممدودة قليلاً إلى الأمام، ليست كمن يتسول تماماً، بل كمن يبحث عن شيء.

كريم توقف.

الرجل رفع رأسه في اتجاه الحركة.

«أسمع خطوات... هل هناك أحد؟»

كريم اقترب خطوتين. قال بصوت هادئ:

«نعم. أنا هنا.»

الرجل ابتسم ابتسامة متعبة.

«الحمد لله. الناس يمرون كأن الشارع فارغ. أنا أحتاج إلى مساعدة صغيرة. فقط أن تأخذني إلى العيادة في نهاية الزقاق. عندي موعد لفحص العينين الجديدتين... إذا قدرت أدفع العربون هذا الشهر.»

كريم نظر إلى اليد الممدودة. ثم مدّ يده وأمسك بها. كانت خشنة ودافئة.

«هيا. أنا أساعدك.»

مشيا ببطء. الرجل يتكلم وهو يمشي، كأن الكلام يؤنسه أكثر من السكوت:

«كنت أعمل في صيانة المصاعد القديمة. العينان تعبتا من اللحام. قالوا لي إن العيون الجديدة تكلف كثيراً، لكن القسط ممكن. أنت صوت شاب... لماذا في هذا الحي؟»

كريم أجاب بعد لحظة:

«أمرّ فقط.»

الرجل ضحك ضحكة قصيرة.

«الجميع هنا يمرّون فقط. لا أحد يبقى باختياره.»

وصلا إلى باب العيادة الصغيرة. لافتة قديمة تومض بنور ضعيف. الرجل توقف، وما زال ممسكاً بيد كريم.

«شكراً لك. حقاً. منذ أيام لم يمسك أحد بيدي بهذه الطريقة.»

رفع يده الأخرى وبحث عن وجه كريم ليلمسه، كعادة العميان حين يريدون التعرف. أصابعه لمست الخد أولاً، ثم ارتفعت إلى الجبهة.

توقف الأصابع فجأة فوق العلامة.

الرجل جمد. ثم سحب يده بسرعة كمن لامس ناراً. صوته تغيّر تماماً، أصبح مرتجفاً ومذعوراً:

«علامة... أنت من الذين... لا. لا. ابتعد.»

تراجع خطوتين واصطدم بالجدار.

«أنا لم أرَ شيئاً. لم ألمس شيئاً. اتركني. من فضلك.»

كريم بقي واقفاً. اليد التي كانت تمسك بالرجل أصبحت فارغة وفجأة باردة.

«أنا فقط ساعدتك...»

الرجل كان يبحث عن باب العيادة بيديه المرتجفتين، ظهره ملتصق بالحائط.

«ممنوع. أعرف. أعرف القانون. لا تقترب. اذهب.»

باب العيادة فتح من الداخل. روبوت ممرض ظهر وقال بصوت رتيب:

«الموعد التالي...»

الرجل اندفع نحو الباب وهو يتمتم كلمات غير مفهومة. الباب أُغلق خلفه.

كريم وقف وحده في الزقاق. صوت خطواته هو الوحيد الذي بقي. رفع يده ونظر إلى أصابعه التي لمست يد الرجل قبل دقائق.

ثم لمس العلامة على جبهته. كانت باردة كالمعادن المحيطة به.

همس، والصوت ضاع في الرطوبة:

«حتى هنا... حتى الذين لا يرون... يخافون.»

وأدار ظهره للعيادة، وصعد الدرج الحجري ببطء عائداً إلى الطبقات العليا، حيث الأضواء أكثر سطوعاً، والناس أكثر عمىً.

الفصل الثالث عشر

الآخرون

بعد شهر كامل، بدأ كريم يلاحظهم أكثر.

لم يكونوا كثيرين، لكنهم موجودون. يتحركون في أطراف المدينة، في الساعات الهادئة، في الأحياء التي يقل فيها الزحام. علامة سوداء على الجبهة تفضحهم لمن يعرف كيف ينظر.

أول مرة رآها كانت في الحديقة المعلقة السفلية، المكان الذي يسمح لهم بالدخول مجاناً. امرأة في منتصف الثلاثين، شعرها القصير أسود، ووجهها شاحب. كانت تجلس على مقعد بعيد وتحدق في الشلال الاصطناعي. على جبهتها علامة أكبر قليلاً من علامته، وخطوطها أكثر تعقيداً.

كريم اقترب ببطء. جلس على مقعد يبعد عنه مقعدين. لم ينظر إليها مباشرة في البداية. بعد دقائق، قال بصوت منخفض جداً، دون أن يحرك شفتيه كثيراً:

«منذ متى؟»

المرأة لم تلتفت. لكن كتفها اليمنى تيبست قليلاً. بعد صمت طويل، خرج صوتها خافتاً وحذراً كأنه يأتي من خلف جدار:

«عامين وثلاثة أشهر. الباقي تسعة أشهر.»

«بسبب ماذا؟»

«رفضت الإبلاغ عن جاري. كان يبكي كل ليلة. النظام اعتبر صمتي جفاءً جماعياً.»

كريم نظر إلى الأرض. أراد أن يقول شيئاً آخر. قبل أن يفعل، مرّ روبوت أمن بطيء على الممر المجاور. الضوء الأحمر الصغير في جبهته مسح المنطقة. المرأة قامت فوراً ومشت في الاتجاه المعاكس دون أن تنظر إليه مرة أخرى.

في الأسبوع التالي رآها مرة ثانية قرب السوق الآلي الليلي. حاول أن يقترب. هذه المرة هزت رأسها بسرعة وابتعدت قبل أن ينطق بكلمة.

ثم جاء الرجل المسن.

رآه في الفجر، عند محطة القطار القديمة التي لم تعد تستخدم كثيراً. الرجل كان يجلس على الدرج الحجري، ظهره منحنٍ، وعلامته باهتة تقريباً من الزمن، كأنها جزء من جلده منذ سنوات. شعره أبيض رفيع، ويداه ترتعشان قليلاً فوق ركبتيه.

كريم جلس على درجة أعلى. بعد وقت طويل قال:

«كم سنة؟»

الرجل لم يرفع رأسه. صوته كان خشناً كحصى:

«ست سنوات. وأربعة أشهر. وسبعة أيام.»

«لماذا لم تنتهِ؟»

«لأنني كلمت واحداً مثلنا في السنة الثالثة. أضافوا لي سنتين. ثم كلمت آخر بعد ذلك. أضافوا سنة.»

صمت. ثم أضاف بصوت أخفض:

«لا تحاول. هم يرون حتى الهمس. الروبوتات تتعلم من وجوهنا قبل أن تتعلم من أصواتنا.»

كريم نظر حوله. على سطح المبنى المقابل كانت كاميرا ثابتة تتجه نحو الساحة. روبوت أمن يقف على بعد خمسين متراً، يبدو كأنه في وضعية راحة، لكن ضوءه الأزرق ينبض بانتظام.

الرجل المسن قام ببطء. قبل أن يبتعد، قال دون أن يلتفت:

«الوحدة أسهل من العقوبة المضاعفة. تعلم أن تصمت حتى مع نفسك.»

ومشى. خطواته بطيئة ومنتظمة كمن حفظ المسافات كلها عن ظهر قلب.

كريم بقي جالساً على الدرج. الشمس الصناعية بدأت ترتفع. في الأفق كان بإمكانه أن يرى امرأة أخرى عن بُعد، تمشي وحيدة قرب السياج، علامة جبهتها تلمع لحظة تحت الضوء ثم تختفي حين أدارت وجهها.

أخرج جهازه، ثم أعاده إلى جيبه دون أن يفتحه. تذكر صوت المرأة، وصوت الرجل المسن، والروبوت الذي مرّ بينهما.

همس لنفسه، وهذه المرة تأكد أن الصوت لم يخرج من فمه فعلاً:

«حتى نحن... ممنوع علينا أن نكون نحن.»

ثم قام ومشى في الاتجاه المعاكس للجميع.

الفصل الرابع عشر

منتصف الطريق

في الليلة التي اكتمل فيها الشهر السادس، لم ينم كريم.

كان مستلقياً على ظهره منذ ساعات، يحدق في السقف الأسود. الرقم الذي يظهر في زاوية الشاشة المنزلية حين يطلبه كان واضحاً: مئة وثلاثة وثمانون يوماً مضت. ومئة واثنان وثمانون يوماً باقية.

العلامة على جبهته لم تعد تؤلمه. أصبحت جزءاً من وجهه، كندبة قديمة أو شامة وُلد بها. لكنه كان يلمسها كل ليلة قبل أن يطفئ النور، كمن يتأكد أنها لم تختفِ فجأة.

الأرق جاء تدريجياً. في البداية كان مجرد صعوبة في النوم. ثم تحول إلى سهر طويل حتى الفجر. ثم جاءت الكوابيس.

في أحدها كان يمشي في شوارع المدينة وكل الوجوه حوله فارغة تماماً، بلا عيون وبلا أفواه. في كابوس آخر كان يقف أمام المرآة فلا يرى صورته، فقط العلامة السوداء عائمة في الهواء. وفي ثالث كان يصرخ ولا يخرج منه صوت، بينما الناس يمرون ويضحكون كأنهم يسمعون نكتة بعيدة.

استيقظ أكثر من مرة والعرق يبلل صدره. كان يشرب ماءً ويقف عند النافذة ينظر إلى الأضواء البعيدة حتى يهدأ قلبه.

في النهار أصبح الروتين أثقل. الحدائق المعلقة لم تعد تثير فيه شيئاً. المطاعم الآلية صارت طعمها واحداً. القطار يأخذه إلى أماكن ثم يعيده دون أن يتذكر لماذا ذهب.

حاول أن يقرأ. الكلمات كانت تمر أمام عينيه دون أن تترك أثراً. حاول أن يشاهد شيئاً على الشاشة. الصور تتحرك وهو يحدق من خلالها إلى الجدار خلفها.

في إحدى الليالي، بعد أن فشل في النوم للمرة الرابعة، جلس على حافة الفراش وأمسك رأسه بيديه. السؤال الذي كان يتجنبه منذ أسابيع خرج أخيراً، واضحاً وبلا رحمة:

«كيف سأعيش الستة أشهر الباقية؟»

لم يكن خائفاً من الموت. كان خائفاً من الاستمرار. من أن يصبح كالرجل المسن الذي يعد السنوات والأشهر والأيام. من أن تصبح الوحدة عادة لا يمكن كسرها حتى بعد انتهاء العقوبة.

قام ومشى في الشقة الضيقة. من غرفة النوم إلى الصالة إلى المطبخ ثم العودة. خطواته كانت الوحيدة المسموعة. توقف أمام المرآة في المدخل. أضاء النور.

الوجه الذي نظر إليه كان أنحف. العينان غائرتان قليلاً. والعلامة السوداء تلمع تحت الضوء كأنها تراقبه هي أيضاً.

مدّ يده ولامس الزجاج فوق صورته.

«نصف الطريق...» همس. «وما زلت هنا.»

ثم أطفأ النور. عاد إلى الفراش. استلقى على جنبه هذه المرة، ووجه نحو الحائط.

خارج النافذة كان الفجر يبدأ في التسلل رمادياً. المدينة تستيقظ ببطء. هو يعرف أنها ستستيقظ بدونه، كما استيقظت كل يوم منذ ستة أشهر.

أغمض عينيه. لم ينم فوراً. لكن التعب كان أقوى من الأرق هذه المرة. قبل أن ينزلق إلى النوم، فكر للحظة في اليوم الذي ستُكسر فيه العلامة.

هل سيتذكر كيف يتكلم مع الناس؟

هل سيتذكر كيف يبدو حين يراه أحدهم حقاً؟

السؤال بقي معلقاً في الظلام، بلا إجابة، بينما غرق أخيراً في نوم ثقيل قصير لا أحلام فيه.

الفصل الخامس عشر

شبح

بعد انتصاف المدة، توقف كريم عن حساب الأيام.

لم يعد ينظر إلى الرقم الذي يظهر على الشاشة المنزلية. لم يعد يلمس العلامة كل صباح ليتأكد من وجودها. أصبحت شيئاً مفروغاً منه، كاسمه أو لون عينيه.

كان يستيقظ في ساعة مختلفة كل يوم. أحياناً مع الشروق، وأحياناً بعد الظهر. يأكل ما يقدمه المطبخ الآلي دون أن يتذوقه حقاً. ثم يخرج.

يمشي.

المدينة أصبحت مسارات محفوظة: من الشقة إلى الحديقة السفلية، من الحديقة إلى السوق الآلي، من السوق إلى المحطة القديمة، ثم العودة. الخطوات منتظمة، والوجه ثابت. الناس ينحرفون عنه كالعادة، والروبوتات تخدمه كالعادة. هو يمر وسطهم كأنه طبقة إضافية من الهواء.

في إحدى الأمسيات جلس على مقعد في ساحة واسعة. أخرج جهاز القراءة. فتح كتاباً عشوائياً. الكلمات ظهرت في الهواء. راح يقلب الصفحات بانتظام كل دقيقة تقريباً، دون أن يتوقف عند جملة، دون أن يعود إلى فقرة. بعد نصف ساعة أغلق الجهاز وهو لا يتذكر عنوان الكتاب.

قام ومشى مرة أخرى.

مرّ أمام مقهى كان يجلس فيه قديماً مع زملاء العمل. نظر من الزجاج. الوجوه داخله تضحك وتتحدث. لحظة قصيرة تذكر أسماء بعضهم، ثم نسيها وهو يعبر الشارع.

في الليل كان يعود إلى الشقة. يجلس على الأريكة في الظلام أحياناً لساعات. لا يفكر في شيء محدد. لا يخطط للغد. لا يسترجع الماضي. فقط يحدق في الفراغ أمامه حتى يشعر بالنعاس أو بالملل فيقوم وينام.

الجسد نفسه أصبح أقل احتجاجاً. الأرق خف، والكوابيس ندرت. حل محلها شيء أبرد: لامبالاة شاملة. لم يعد يغضب من تجاهل الناس، ولا يحزن من صمت الشقة، ولا يفرح بخدمة الروبوتات. كل شيء كان يمر عليه كماء بارد ينزلق على حجر.

في أحد الأيام، وهو يمشي في شارع مزدحم، توقف فجأة في منتصف الرصيف. الناس ينحرفون يميناً ويساراً دون أن ينظروا. رفع يده أمام وجهه وحرك أصابعه. ثم لمس صدره، يتأكد أنه ما زال يتنفس.

همس بصوت لم يعد يهتم إن خرج أم لا:

«ما زلت هنا...»

ثم أضاف بعد لحظة، كأنه يصحح نفسه:

«أو ربما لا.»

وأكمل المشي. الخطوات نفسها، والوجه نفسه، والمدينة حوله تمور بالحياة التي لم تعد تلمسه.

في المساء، أمام المرآة، نظر إلى صورته طويلاً. الوجه أنحف، واللحية خفيفة لأنه لم يعد يحلق بانتظام. العلامة سوداء وهادئة.

مدّ يده وأطفأ النور قبل أن يكمل النظر.

في الظلام، بدا لنفسه أكثر واقعية.

الفصل السادس عشر

الشاب النحيف

في أحد الأيام الرمادية من الشهر الثامن، رأى كريم الشاب للمرة الأولى.

كان يجلس القرفصاء عند نهاية زقاق ضيق خلف المستودع الآلي القديم، حيث نادراً ما يمر أحد. الشاب كان نحيلًا جداً، كأن عظامه تكاد تخترق الجلد. شعره أسود غير مرتب، ووجهه شاحب، وعلى جبهته علامة سوداء واضحة، أحدث من علامة كريم قليلاً.

كريم توقف عند مدخل الزقاق. الشاب رفع رأسه. عيونهم تلاقَت.

للحظة قصيرة بدا الشاب كمن يريد أن يقول شيئاً. ثم خفض رأسه بسرعة وعاد يحدق في الأرض بين قدميه.

كريم دخل الزقاق بخطوات بطيئة. اقترب حتى صار بينهما متران فقط. نظر حوله. لا كاميرات ظاهرة على الجدران القريبة، ولا روبوت أمن في المدى المنظور. الصوت الذي خرج منه كان همساً خفيفاً جداً:

«منذ متى؟»

الشاب لم يرفع رأسه. كتفه ارتجفتا مرة واحدة. كريم انتظر. ثم أعاد السؤال، أكثر انخفاضاً:

«أنا مثلك. لا تخف.»

هذه المرة رفع الشاب عينيه. فيهما خوف حاد، وخلف الخوف شيء يشبه الإرهاق الشديد. صوته خرج مكسوراً ومتقطعاً، كأنه لم يستخدمه منذ أسابيع:

«اتركني... من فضلك.»

«فقط أريد أن...»

«لا. يسمعون. حتى هنا. أضافوا لي ثلاثة أشهر لأنني رددت على واحد مثلك في الشهر الأول. لا أقدر...»

الشاب قام فجأة. جسده النحيل ارتجف وهو يلتصق بالحائط كمن يبحث عن مخرج. عيناه تتحركان يميناً ويساراً بسرعة.

«ابتعد. لا تنظر إليّ. لا تتكلم.»

كريم رفع يديه قليلاً، كإشارة تهدئة.

«لن أخبر أحداً. أنا فقط...»

الشاب قطع الكلام بحركة يد سريعة وعنيفة تقريباً، ثم اندفع نحو الطرف الآخر من الزقاق. خطواته كانت سريعة وغير منتظمة. قبل أن يختفي خلف الزاوية، التفت لحظة واحدة. وجهه كان ممتلئاً بالذعر الصافي.

ثم اختفى.

كريم بقي واقفاً في الزقاق. صوت تنفسه هو الوحيد المسموع. رفع رأسه ونظر إلى الجدران الضيقة. في الأعلى، بين مبنيين، لمح ضوءاً أحمر صغيراً ينبض ببطء. كاميرا خفية، أو جهاز استشعار.

تذكّر عيني الشاب. الخوف فيهما لم يكن من كريم نفسه. كان من النظام كله، من العقوبة الإضافية، من أن يصبح الاختفاء أطول مما يحتمل.

خرج من الزقاق ببطء. المدينة عادت تحيط به بض infجيجها المعتاد. الناس يمرون، ينحرفون، يتجاهلون.

لكن صورة الشاب النحيف بقيت معه طوال الطريق إلى الشقة. الوجع الذي كان في صوته، والارتجاف في كتفيه، والكلمات المقطوعة:

«لا أقدر...»

في المساء، وهو يجلس في الظلام، فكر كريم في المرة القادمة التي قد يراه فيها. هل سيحاول الكلام مرة أخرى؟ أم سيمر بجانبه كأنه لا يراه، تماماً كما يفعل الآخرون به؟

العلامة على جبهته بدت أثقل قليلاً تلك الليلة.

همس في الصمت:

«حتى الخوف... نتشاركه دون أن نقدر على الكلام عنه.»

ثم أغلق عينيه، محاولاً أن ينسى الوجه النحيل، وعجز عن ذلك.

الفصل السابع عشر

الأشواك

في الليلة التي سبقت بداية الشهر التاسع، وجد كريم نفسه في حديقة الصبار.

كانت حديقة صغيرة مهجورة نسبياً في الطرف الشرقي من المدينة، مكاناً قلّما يزوره أحد. الصبارات هناك كبيرة وقديمة، بعضها يصل إلى ارتفاع إنسان، وأشواكها طويلة وحادة ولامعة تحت الضوء الخافت.

دخل كريم من البوابة الجانبية المفتوحة دائماً. الهواء كان جافاً، والسكينة كاملة إلا من صوت بعيد لقطار ليلي. مشى بين النباتات حتى وصل إلى صبّارة ضخمة في الوسط، ذات أشواك كثيفة مدببة كالإبر.

توقف أمامها. نظر إلى يده اليمنى. قلبها يمنة ويسرة. الجلد باهت، والأصابع طويلة ونحيلة أكثر من ذي قبل.

منذ أيام كان يمر أمام المرآة دون أن يتوقف. منذ أسابيع لم يلمس أحد جسده، ولم يلمسه أحد. الروبوتات تخدمه دون تلامس حقيقي. الناس ينحرفون قبل أن يقتربوا. حتى الهواء بدا كأنه يمر من خلاله أحياناً.

رفع يده ببطء. قرّبها من الأشواك. توقف ملليمترات قبل اللمس. ثم ضغط.

الألم جاء حاداً وفورياً. الأشواك دخلت في راحة يده وفي لحم أصابعه. أحس بكل شوكة على حدة، كأنها توقظ شيئاً ناماً تحت الجلد. أطبق أسنانه، لكنه لم يسحب يده. ضغط أكثر. شعر بالدم الدافئ يبدأ في التسرب، يسيل بين أصابعه ويقطر على التراب الجاف تحت الصبّارة.

الآن أخرج يده.

في الضوء الخافت رأى الثقوب الصغيرة، والدم القاتم يلمع. أغلق أصابعه ثم فتحها. الألم كان نابضاً وواضحاً وحقيقياً.

ابتسم.

ابتسامة صغيرة ملتوية، ليست من الفرح ولا من السخرية. ابتسامة من يكتشف فجأة أنه ما زال يمتلك جسداً.

همس وهو ينظر إلى الدم:

«أنا هنا... هذا أنا.»

وقف ينظر إلى يده طويلاً. الدم يسيل ببطء أكبر الآن. الألم ينتشر إلى المعصم. لم يحاول إيقافه فوراً. أراد أن يستمر الإحساس بضع دقائق إضافية.

بعد قليل أخرج من جيبه منديلاً قديماً ولفّ به الراحة. الضغط جعل الألم أعمق، لكنه كان ألماً نظيفاً، يخصه وحده، لا يشاركه فيه نظام ولا روبوت ولا قانون.

خرج من الحديقة بخطوات بطيئة. في الشارع لم يلاحظه أحد، كالعادة. الدم كان قد بدأ يجف تحت المنديل. كان يشعر بنبضه في يده بوضوح، كساعة صغيرة تذكره في كل ثانية أنه لم يتبخر بعد.

عند عودته إلى الشقة، غسل الجرح بالماء البارد. الأشواك كانت قد خرجت كلها، وبقيت الثقوب الحمراء. لم يضع دواءً. تركها مكشوفة.

نام تلك الليلة ويده على صدره. الألم الخفيف يرافقه حتى غرق في النوم. لأول مرة منذ أسابيع، نام دون أن يسأل نفسه إن كان ما زال موجوداً حقاً.

في الصباح، حين استيقظ، نظر إلى الجرح. كان قد أسودّ قليلاً حول الحواف. لمسّه بأصابع اليد الأخرى. الألم عاد خفيفاً.

قال لنفسه بصوت هادئ:

«ما زلت...»

ثم قام ليواجه يوماً جديداً من الاختفاء، ويده تذكّره في كل حركة أنه لم يختفِ بالكامل بعد.

الفصل الثامن عشر

الجرح القديم

في الليلة التالية، بينما كان يجلس في الشقة المظلمة ويده ما تزال تؤلمه خفيفاً، عاد الماضي دون استئذان.

لم يأتِ كحلم. جاء كصورة واضحة جداً، كأنه يقف مرة أخرى في الغرفة القديمة.

كان في السابعة والعشرين. والده يجلس على الكرسي الخشبي بجانب النافذة. المرض كان قد نخر جسده حتى أصبح الظلّ أوضح من الرجل. الغرفة تفوح منها رائحة الدواء والشيء الذي لا يُسمّى. الأب يتكلم بصوت ضعيف، يروي شيئاً عن طفولته، عن أم كريم التي ماتت مبكراً، عن خوفه من أن يموت وحيداً.

كريم كان واقفاً قرب الباب. ينظر إلى ساعته.

كان لديه اجتماع مهم في الصباح التالي. عرض تقديمي أمام مجلس الإدارة. ترقية محتملة. قال لوالده:

«سأعود غداً بعد الظهر. ارتاح الآن.»

الأب نظر إليه طويلاً. عيناه كانتا صافيتين رغم المرض. قال فقط:

«حسناً يا بني.»

كريم خرج. أغلق الباب بهدوء. في الردهة تنفس الصعداء، كمن خرج من غرفة منخفضة السقف.

في اليوم التالي لم يعد بعد الظهر. الاجتماع طال، ثم خرج مع الزملاء لتناول العشاء احتفالاً بالعرض الناجح. عندما رنّ هاتفه ليلاً، كان اسم المستشفى يظهر على الشاشة. لم يجب من المرة الأولى. في المرة الثانية سمع صوت الممرضة يقول إن والده توفي قبل ساعة.

لم يبكِ في المستشفى. لم يبكِ في الجنازة. وقف واستقبل العزاء بوجه هادئ وكلمات قصيرة. الناس قالوا عنه إنه قوي. بعضهم قال إنه بارد.

بعدها بأشهر بدأ يلاحظ أن الكلمات العاطفية أصبحت أصعب على لسانه. أن يجلس مع أحد يبكي صار شيئاً يثقله. أن يفتح صدره لأي شخص بدا له خطراً لا مبرر له. أغلق الباب من الداخل، ولم يلاحظ أحد في البداية.

الآن، بعد تسعة أشهر من العلامة، كان الجرح نفسه مفتوحاً من جديد.

العقوبة لم تعلّمه التعاطف. أعادته إلى الغرفة القديمة. إلى الساعة التي نظر إليها بدل أن ينظر إلى عيني والده. إلى الجملة التي قالها وهو يفكر في الاجتماع.

كان يجلس على الأرض مستنداً إلى جدار الشقة. يده المجروحة على ركبته. المدينة خارج النافذة تصدر أصواتها البعيدة المعتادة.

همس في الظلام، كأنه يكلم الرجل الذي مات قبل سبع سنوات:

«لم أكن أعرف كيف أبقى... حتى معك.»

ثم أضاف بعد صمت طويل:

«والآن لا أحد يبقى معي.»

تذكر أن النظام قال في المحكمة إن الاختفاء سيجعله «يجرب ما فعله بالآخرين». لكنه كان يجرب شيئاً أقدم. شيئاً فعله بنفسه أولاً، في تلك الليلة التي اختار فيها الاجتماع على الجلوس بجانب سرير أبيه.

رفع يده إلى جبهته ولمس العلامة. ثم لمس الجرح في راحته. الألمَان اختلفا في النوع، لكنهما كانا يخرجان من المكان نفسه تقريباً.

لأول مرة منذ بداية العقوبة، شعر أن البرودة التي عاقبوه عليها لم تبدأ بالاجتماعات الأربعة في الشركة. بدأت قبل ذلك بكثير. في غرفة صغيرة، أمام رجل كان يموت ويطلب منه فقط أن يبقى.

أغلق عينيه. لم ينم. بقي جالساً حتى بدأ الضوء الرمادي يتسلل من خلف الستائر، والمدينة تستيقظ على يوم جديد من تجاهله تماماً.

الفصل التاسع عشر

الزمن يتلاشى

الثلاثة أشهر الأخيرة مرّت كأنها ضباب.

الثلج الصناعي سقط في موعده المعتاد، غطى الحدائق والأسطح بطبقة بيضاء ناعمة تذوب تحت أقدام الناس وتبقى تحت أقدام كريم دون أن يلاحظها أحد. كان يمشي في الثلج ويترك آثاراً سرعان ما تُطمس تحت أقدام الآخرين أو تحت آلات التنظيف.

ثم جاء الربيع المبرمج. الأشجار المعدلة أزهرت بين ليلة وضحاها، والهواء امتلأ بروائح مصطنعة للورد والياسمين. الناس خرجوا في ملابس ملونة، والتقطوا صوراً، وجلسوا في المقاهي المفتوحة. كريم مرّ بينهم كظلّ قديم لا لون له.

في أحد الأيام وجد نفسه أمام شاشة إعلانات كبيرة في الساحة المركزية. التاريخ يظهر في الزاوية: ٩ مايو ٢١٠٥. بقي ينظر إلى الرقم ثواني طويلة قبل أن يدرك معناه.

بقي يومان.

اليوم الذي كان يحسبه في البداية كل صباح، ثم كل أسبوع، ثم نسيه تماماً، صار الآن قريباً جداً. شعر بشيء غريب في صدره، ليس فرحاً ولا خوفاً. شيء يشبه الدوار.

جلس على مقعد قريب. راقب الأطفال يركضون وراء فقاعات طائرة ملونة. راقب زوجين يتحدثان هماساً. راقب روبوت خدمات يمرّ ويوزع منشورات إلكترونية عن مهرجان الربيع.

رفع يده إلى جبهته. العلامة كانت ما تزال هناك، سوداء وهادئة. بعد غدٍ، في الحادي عشر من مايو، سيكسرها روبوت رسمي في مكان ما، ويعود «مرئياً».

هل يتذكر كيف يكون مرئياً؟

حاول أن يسترجع ملامح وجهه حين كان الناس ينظرون إليه في عينيه. حاول أن يتذكر صوت زميل يقول له «صباح الخير» وينتظر الرد. الصور جاءت باهتة، كذكريات طفولة بعيدة.

قام ومشى. هذه المرة لاحظ أنه يمشي أبطأ من المعتاد. الشوارع التي عرفها خلال العام كله بدت فجأة مؤقتة، كأنها ستختفي معه أو بدونه.

في المساء عاد إلى الشقة. طلب من الشاشة عرض التاريخ والساعة. الرقم كان واضحاً. بقي يوم ونصف.

جلس على الأرض ظهره إلى الحائط، كما يفعل منذ شهور. نظر إلى يده التي تحمل آثار الأشواك الباهتة الآن. ثم لمس العلامة للمرة الأولى منذ وقت طويل بوعي كامل.

همس:

«بعد غد...»

الصوت بدا غريباً في الشقة الفارغة، كأنه يخص شخصاً آخر.

خارج النافذة كانت أضواء المهرجان تلوّن السماء بألوان وردية وخضراء. أصوات بعيدة لموسيقى وضحكات. هو يستمع إليها كمن يستمع إلى راديو في غرفة أخرى، من منزل آخر، في حياة أخرى.

أغمض عينيه. لم يعد يعدّ الساعات. الزمن كان قد فقد أسنانه منذ شهور، والآن حتى نهايته بدت له مجرد رقم آخر على شاشة.

لكن الرقم كان يقترب رغم ذلك. والحادي عشر من مايو كان قادماً، سواء تذكر كيف يواجهه أم لم يتذكر.

الفصل العشرون

الليلة الأخيرة

الليلة الأخيرة كانت هادئة أكثر من أي ليلة سبقتها.

كريم لم يشعل النور. جلس على الأرض في الصالة، ظهره إلى الحائط، ووجهه نحو النافذة المفتوحة. الهواء الربيعي يدخل برفق، حاملاً أصوات المدينة البعيدة: ضحكة، صوت عجلات، موسيقى خافتة من شقة ما.

على الشاشة المنزلية، لو طلب، كان سيظهر التاريخ: ١٠ مايو ٢١٠٥. الساعة تقترب من منتصف الليل. بعد ساعات قليلة سينتهي العام.

لكنه لم يطلب.

وضع يده على جبهته. العلامة كانت باردة وملساء تحت أصابعه. بعد غدٍ، أو بعد ساعات، سيكسرها روبوت، ويمسحها، ويعود وجهه «نظيفاً». الناس سينظرون إليه من جديد. الروبوتات البشرية ستبتسم. الزملاء السابقون قد يقولون «أهلاً» وكأن العام لم يكن.

سأل نفسه في الصمت:

ما الذي يعنيه أن تكون موجوداً حين يقرر الجميع أنك لست كذلك؟

خلال عام كامل لم يلمسه بشر إلا مرتين: مرة يد الأعمى التي ارتجفت وابتعدت، ومرة الأشواك التي أدمته عمداً. لم يقل له أحد «كيف حالك؟» وينتظر الإجابة. لم يغضب منه أحد، ولم يفرح برؤيته أحد. حتى الكراهية كانت نوعاً من الاعتراف، وهو لم ينل حتى ذلك.

هل كان موجوداً حقاً طوال هذه الأشهر؟

الجسد كان يأكل وينام ويمشي ويتألم. العقل كان يفكر ويتذكر ويكابوس. لكن الوجود الذي يعرفه الناس — أن تنعكس في عيون الآخرين، أن يترك صوتك أثراً في أحدهم، أن يتغير شيء في العالم لأنك قلت أو فعلت — هذا الوجود كان معلقاً.

تذكّر والده في الغرفة القديمة. الرجل الذي كان يموت ويطلب منه فقط أن يبقى. هو لم يبقَ حينها. الآن بقي وحده طوال عام، ولم يطلب منه أحد أن يبقى.

ابتسم في الظلام ابتسامة صغيرة مرة.

ربما كان الاختفاء هو العقوبة الوحيدة التي تناسبه. ربما كان غير مرئي من قبل أن تُوضع العلامة، والعلامة فقط جعلت الأمر رسمياً.

رفع رأسه ونظر إلى النافذة. الأضواء البعيدة تلمع. سأل نفسه بصوت مسموع هذه المرة، خافتاً:

«إذا عدت غداً... هل أعود أنا؟ أم أعود شخصاً يتذكر كيف كان شخصاً آخر؟»

لا إجابة. فقط هواء الربيع يحرّك الستارة خفيفاً.

قام ببطء. مشى إلى المرآة في المدخل. لم يشعل النور. في العتمة كان يرى فقط شكل وجهه، والعلامة أشد سواداً من بقية الظل.

لمس الزجاج بأصابعه.

«غداً ينتهون منك»، همس للعلامة. «وأنا... سأبقى أحاول أن أتذكر كيف أبدو حين يراني أحدهم حقاً.»

ثم ترك المرآة. عاد إلى مكانه على الأرض. استند إلى الحائط وأغلق عينيه.

لم ينم. بقي يستمع إلى المدينة وهي تتنفس بدونه، ويعدّ الساعات دون أرقام، وينتظر اللحظة التي سيفتحون فيها الباب ويقولون له إنه لم يعد شبحاً.

في مكان ما داخل صدره، شيء صغير قديم كان ما يزال ينزف بهدوء. ليس من الأشواك، ولا من العلامة.

من الغرفة التي خرج منها قبل سبع سنوات، وترك رجلاً يموت وحده.

الفصل الحادي والعشرون

١١ مايو

صباح الحادي عشر من مايو ٢١٠٥ جاء هادئاً ومشمساً.

كريم لم ينم تلك الليلة. بقي جالساً حتى بدأ الضوء يتسلل من النافذة. الساعة على الشاشة كانت تظهر السادسة وأربعين دقيقة عندما رنّ الجرس.

لم يكن جرساً عادياً. كان صوتاً رسمياً معدنياً يقول:

«المواطن كريم حسن. حان موعد إنهاء العقوبة. افتح الباب.»

قام ببطء. قدماه كانتا ثقيلتين. فتح الباب.

روبوتان من أمن التوازن الاجتماعي يقفان في الممر. أحدهما يحمل حقيبة صغيرة سوداء. الوجهان أملسان كالعادة.

«اخرج إلى الممر. الوقوف مستقيم.»

امتثل. وقف وظهره إلى جدار الممر. الروبوت الأول فتح الحقيبة وأخرج أداة تشبه القلم الذي وضع العلامة قبل عام. الطرف هذه المرة كان يصدر ضوءاً أبيض ناعماً.

«ابقَ ثابتاً. العملية تستغرق ثلاثين ثانية.»

الضوء لمس جبهته. حسّ بحرارة خفيفة، ثم بوخز سريع، ثم ببرودة مفاجئة كأن شيئاً قُشر عن جلده. الروبوت مسح المنطقة بقماش معقم. العلامة اختفت. بقي مكانها جلد وردي قليلاً، حساس، كجرح سطحي حديث.

الروبوت الثاني قال بصوت واضح ورسمي:

«انتهت مدة العقوبة. مرحباً بك أيها المواطن. أنت الآن مرئي بالكامل ومؤهل للتفاعل الاجتماعي الطبيعي.»

الكلمة سقطت في الممر كحجر.

«مرحباً بك أيها المواطن.»

كريم رفع يده إلى جبهته. لمس المكان الذي كانت فيه العلامة. الجلد ناعم وغريب. لا نتوء، لا سواد. فقط حساسية خفيفة تحت الأصابع.

الروبوتان انصرفا دون كلمة إضافية. الباب أُغلق خلفهما.

كريم عاد إلى الشقة. مشى مباشرة إلى المرآة. أضاء النور.

الوجه الذي نظر إليه كان وجهه... بلا علامة. الجبين نظيف. العينان غائرتان أكثر من ذي قبل، والخدود أنحف، واللحية غير مرتبة. لكنه «نظيف».

حدّق طويلاً. حاول أن يبتسم. الابتسامة جاءت غريبة، كأنها تخص شخصاً آخر يستعير وجهه.

خرج من الشقة بعد ساعة. الباب أغلق خلفه كالعادة. في المصعد وقفت امرأة بجانبه. نظرت إليه. ابتسمت ابتسامة مهذبة قصيرة. هذه المرة رأتْه.

كريم حاول أن يرد الابتسامة. عضلات وجهه تحركت ببطء، كأنها تذكرت حركة قديمة منسية. المرأة نزلت في طابق قبل الأخير. الباب أغلق.

في الشارع كان الربيع في ذروته. الناس يمرون. لأول مرة منذ عام، بعضهم ينظر إليه مباشرة. رجل تلاقى معه بصره لثانية ثم حوّل عينيه. امرأة مرت بجانبه ولم تنحرف.

شعر بدوار خفيف. التفت حوله. المدينة كانت هي نفسها، لكن العيون التي كانت تمر من خلاله أصبحت الآن تتوقف عليه لحظة ثم تكمل طريقها.

جلس على أول مقعد وجده. وضع يديه على ركبتيه ليمنعهما من الارتجاف. رفع رأسه إلى السماء الصافية.

«مرحباً بك أيها المواطن...»

الكلمة كانت ما تزال ترن في رأسه. لم تكن تبدو ترحيباً. بدت كحكم جديد.

بعد عام كامل من الاختفاء، أصبح مرئياً من جديد.

والرعب الذي شعر به الآن لم يكن من العودة إلى الوحدة.

كان من العودة إلى الناس.

الفصل الثاني والعشرون

الأيام الأولى

في اليوم التالي لإنهاء العقوبة، حاول كريم أن يعيش كشخص مرئي.

نزل إلى الشارع في الصباح الباكر. الشمس كانت ساطعة، والناس أكثر عدداً. كلما مرّ أحدهم بجانبه كان يشعر بوزن النظرة على وجهه، حتى لو كانت عابرة. بعد عام من المرور عبر العيون كالهواء، أصبحت كل نظرة مباشرة ثقيلة كلمس اليد.

دخل المقهى الآلي الذي اعتاد الجلوس فيه أيام الاختفاء. الروبوت النادل قال له كالعادة:

«مرحباً. ماذا تطلب؟»

لكن هذه المرة، بينما كان ينتظر، جاءت امرأة وجلسَت على الطاولة المجاورة. نظرت إليه، ثم ابتسمت ابتسامة قصيرة مهذبة. كريم فتح فمه ليرد... فوجد الكلمات عالقة. حرك شفتيه بلا صوت تقريباً، ثم أخرج جملة متأخرة وباهتة:

«...صباح الخير.»

المرأة أومأت وأعادت نظرها إلى شاشتها. المحادثة انتهت قبل أن تبدأ. كريم شعر بحرارة في وجهه، كأنه ارتكب خطأً.

في الظهيرة ذهب إلى الشركة القديمة. لم يكن ينوي الدخول، فقط المرور من الخارج. عند البوابة رآه الحارس البشري. نظر إليه ثانية أطول من المعتاد، ثم قال:

«كريم؟ ألم تكن...؟ أهلاً بعودتك.»

الكلمة الأخيرة جاءت سريعة ومختصرة، كمن يغلق باباً قبل أن يخرج منه هواء أكثر. كريم أجاب:

«شكراً...»

ثم صمت. الحارس انتظر لحظة إضافية، فلما لم يأتِ شيء آخر، عاد إلى شاشته.

في المساء اتصل به ياسر. الرقم ظهر على الشاشة بعد عام كامل من الصمت. كريم تردد قبل أن يقبل.

صوت ياسر كان حذراً:

«كريم... سمعت أنك رجعت. كيف حالك؟»

«بخير.»

صمت قصير.

«لو تحتاج أي شيء... أو لو تريد أن نتكلم.»

كريم بحث عن جملة مناسبة. وجد فقط:

«شكراً... سأتصل بك.»

أغلق الخط. جلس ينظر إلى الشاشة حتى انطفأت.

خلال الأيام التالية تكررت المشاهد نفسها. الزملاء القدامى الذين يلتقون به في الشارع يبتسمون ابتسامة سريعة ثم ينتقلون إلى موضوع العمل أو الطقس. لا أحد يسأل عن العام. لا أحد يذكر العلامة. كأن السنة كلها حُذفت من السجل المشترك، وبقي فقط فراغ مؤدب يلتفون حوله بحديث عن الحاضر.

في إحدى الليالي وقف أمام المرآة طويلاً. لمس جبينه النظيف. الجلد وردي خفيف ما زال، كأثر جرح قديم يأبى أن يختفي تماماً.

قال لنفسه:

«يروني الآن... لكنهم لا يريدون أن يعرفوا أين كنت.»

ثم أطفأ النور.

الصعوبة لم تكن في أن يراه الناس مجدداً. كانت في أن يتكلم. الكلمات الاجتماعية البسيطة — «كيف حالك؟»، «تشرفنا»، «نفتقدك» — صارت ثقيلة على لسانه، كأنها تنتمي إلى لغة نسيها. وكان على الجانب الآخر نفاق ناعم ولطيف: الجميع يتظاهر بأن شيئاً لم يحدث، وبأنه عاد من إجازة طويلة لا أكثر.

في اليوم الرابع جلس في الحديقة العامة. طفل صغير ركض بالقرب منه وسقط. كريم مدّ يده تلقائياً ليساعده. الأم جاءت بسرعة، شكرته بابتسامة عريضة، ثم أخذت طفلها ومضت وهي تمتم بكلمات لطيفة.

كريم بقي ينظر إلى يده التي لمس بها الطفل. الدفء بقي فيها ثواني إضافية.

ثم سحبها وأدخلها في جيبه، كمن يخفي شيئاً لا يعرف إن كان مسموحاً به بعد.

الفصل الثالث والعشرون

العودة

في اليوم السابع بعد إزالة العلامة، تلقى كريم رسالة رسمية من الشركة:

«المواطن كريم حسن، يمكنك استئناف مهامك اعتباراً من يوم الأحد. تم تحديث ملفك الوظيفي. مرحباً بعودتك إلى فريق نوركوم.»

صباح الأحد ارتدى البدلة الرمادية القديمة. كانت فضفاضة قليلاً على جسمه الأنحف. وقف أمام المرآة دقيقة إضافية. الجبين نظيف. الوجه غريب عليه.

في المصعد صعد مع اثنين من الموظفين القدامى. أحدهما قال:

«كريم! أخيراً رجعت. كيف الإجازة؟»

الكلمة الأخيرة خرجت طبيعية جداً، كأنها الإجازة فعلاً. كريم أجاب بعد لحظة تأخير:

«جيدة... شكراً.»

الرجل ابتسم وربت على كتفه بخفة. اللمسة جعلت كريم ينقبض للحظة قبل أن يتذكر أنها مسموحة الآن.

في الطابق السابع والأربعين كانت الأضواء نفسها، والشاشات نفسها، والرائحة نفسها تقريباً. لينا كانت أول من رآه. رفعت رأسها من خلف شاشتها، ابتسمت ابتسامة عريضة، وقالت بصوت أعلى من اللازم قليلاً:

«أهلاً أهلاً! افتقدناك.»

ثم أضافت بسرعة، وهي تشير إلى الملفات:

«كل شيء منظم. يمكنك البدء من التقرير الأسبوعي.»

ياسر جاء بعد دقائق. مدّ يده فصافحه. المصافحة كانت قصيرة وحارة. قال:

«لو احتجت أي مساعدة في العودة للإيقاع... أنا هنا.»

كريم شكره. الكلمات خرجت صحيحة هذه المرة، لكنها بدت له كأنها تُقال من مسافة بعيدة.

الاجتماع الصباحي بدأ في العاشرة. جلسوا حول الطاولة الشفافة. المدير رحب به بجملة واحدة قصيرة:

«سرورنا بعودة كريم إلى الفريق. نكمل من حيث توقفنا.»

ثم انتقل مباشرة إلى الأرقام. لا أحد ذكر العام. لا أحد سأل أين كان. النقاش جرى كأن المقعد لم يكن فارغاً أبداً، وكأن التقارير كانت تنتظره فقط ليعود ويكملها.

كريم راح يسمع. الأصوات مألوفة، والوجوه مألوفة، لكن شيئاً في داخله كان يجلس على مسافة. كان يرى نفسه من الخارج: رجل نحيف يرتدي بدلة فضفاضة، يبتسم في الوقت المناسب، ويومئ برأسه حين ينتظر منه الإيماء. بينما شخص آخر، أمضى عاماً كاملاً يمشي كشبح، يراقب المشهد من خلف عينيه.

بعد الاجتماع اقتربت منه لينا في الممر.

«حقاً... لو تريد أن تتكلم عن أي شيء. نحن هنا.»

نظرت في عينيه أطول من المعتاد. كريم رأى في نظراتها حذراً مهذباً، ورغبة في إغلاق الموضوع قبل أن يُفتح. ابتسم ابتسامة صغيرة وقال:

«شكراً. أنا بخير.»

هي أومأت، مرتاحة، ومضت.

في المساء عاد إلى الشقة. ألقى البدلة على الكرسي. وقف أمام المرآة من جديد. لمس جبينه، ثم وجهه، ثم نظر إلى عينيه.

همس:

«هم يتصرفون كأنني أنا... وأنا لست متأكداً أنني ما زلت أنا.»

الشخص الذي كان يذهب إلى العمل قبل عام، ويحضر الاجتماعات، ويرد على الرسائل، بدا له الآن بعيداً كذكرى طفولة. أما الذي عاد، فكان يحمل في صدره عاماً من الصمت والثلج والأشواك والعلامة، ولا يعرف كيف يترجم ذلك إلى كلمات يمكن أن يسمعها أحدهم في قاعة اجتماعات مضيئة.

نام تلك الليلة على الأريكة دون أن يغير ملابسه. في الصباح التالي سيعود إلى المكتب مجدداً، ويبتسم في الوقت المناسب، ويكمل التقارير.

والشخص الآخر الذي عاش الاختفاء سيبقى جالساً في مكان ما خلف عينيه، يراقب بصمت، وينتظر أن يقرر أحدهم أخيراً أن يسأله السؤال الحقيقي.

الفصل الرابع والعشرون

اللقاء

كان اليوم الثالث عشر بعد إزالة العلامة. كريم يمشي في الشارع الرئيسي بعد انتهاء العمل، وسط الزحام المسائي المعتاد. الناس يتدفقون من المحطات والمكاتب، الوجوه متعبة أو مستعجلة، والأضواء تبدأ في التحول إلى ألوان المساء.

فجأة أحس بقبضة ضعيفة لكنها يائسة تمسك بذراعه.

التفت.

الشاب النحيف.

كان أضعف مما رآه في الزقاق قبل أشهر. الوجه أكثر شحوباً، والعينان غائرتان، والعلامة السوداء على جبهته تلمع تحت ضوء الإعلانات. يده النحيلة تتشبث بكم بدلة كريم كمن يتمسك بحافة هاوية.

صوته خرج مبحوحاً ومتقطعاً، بالكاد مسموع وسط الضجيج:

«من فضلك... لا تتركني. أنا... أنا لا أقدر أكثر.»

الناس يمرون حولهما. بعضهم ينظر لحظة إلى العلامة على جبهة الشاب ثم يحول عينيه بسرعة ويزيد خطاه. امرأة سحبت طفلها بعيداً. رجل همس لصاحبه شيئاً وأسرع.

كريم جمد. الذراع التي يمسك بها الشاب أصبحت فجأة ثقيلة جداً. في رأسه دارت الصور بسرعة: روبوتات الأمن، الكاميرات، المحكمة، العلامة التي أُزيلت قبل أسبوعين فقط، والكلمة الرسمية «مرحباً بك أيها المواطن».

لو ردّ... لو وقف... لو أظهر أي تفاعل... قد يُسجَّل. قد يُعاد فتح الملف. قد تعود العلامة.

الشاب كان يرتجف. قبضته تضعف ثم تقوى كأنها آخر ما تبقى له.

«أنا أعرفك... رأيتك في الزقاق. أنت كنت مثلنا. من فضلك... دقيقة واحدة فقط. تكلم معي. أي شيء.»

كريم نظر حوله. على العمود القريب كاميرا تدور ببطء. ضوءها الأحمر الصغير ينبض. في الطرف الآخر من الشارع روبوت أمن يتحرك بين الناس بخطى منتظمة.

الصراع داخله كان صامتاً وحاداً. جزء منه — الجزء الذي قضى عاماً يتعلم الصمت والخوف — يصرخ بالانسحاب. يأمره أن يسحب ذراعه ويمشي. أن يحمي الجبين النظيف الذي استعاده للتو.

وجزء آخر، أقدم وأعمق، يتذكر اليد التي لم يمدها لوالده، والسنوات التي أغلق فيها بابه، والعام الذي قضاه يكتشف ثمن الغياب.

الشاب أضاف بصوت ينكسر:

«لا أطلب أن تبقى. فقط... انظر إليّ. قل لي إنني موجود.»

الزمن توقف لثوانٍ. الناس يمرون كالنهر. الكاميرا تدور. الروبوت يقترب ببطء من الجهة الأخرى.

كريم أحس بقلبه يضرب ضد قفصه الصدري. ذراعه ما زالت في قبضة الشاب النحيفة. رفع رأسه ونظر مباشرة في عيني الشاب الغائرتين.

الخوف كان هناك. والخوف كان هنا أيضاً.

لكن شيئاً آخر كان يتحرك في صدره، شيئاً لم يسمح له بالخروج منذ سنوات طويلة.

فتح فمه.

الفصل الخامس والعشرون

القرار

فتح فمه.

الكلمات لم تخرج دفعة واحدة. خرجت بطيئة، كأنما كانت تُسحب من مكان عميق جداً داخل صدره، مكان لم يُفتح منذ سبع سنوات:

«أنا أراك.»

الشاب رفع رأسه فجأة. عيناه الغائرتان امتلأتا بشيء يشبه الذهول أولاً، ثم بشيء أخطر: الأمل.

كريم لم يتوقف.

«أنت موجود. أنا أسمعك. أنا هنا.»

ثم فعل ما لم يخطط له.

سحب ذراعه من قبضة الشاب النحيلة، وفتح ذراعيه، واحتضنه.

الجسد النحيف ارتجف بعنف كأنه تيار كهربائي مرّ فيه. الشاب دفن وجهه في كتف كريم وبدأ ينتحب بصوت مكتوم، صوت شخص لم يسمح لنفسه بالبكاء منذ شهور طويلة. كريم أحس بعظامه تحت الملابس الرقيقة، وبالحرارة الغريبة لجسد بشري آخر يلتصق به بعد عام كامل من الفراغ.

الشارع لم يعد شارعاً عادياً.

الناس توقفوا. بعضهم رفع هاتفه ليصوّر. امرأة صرخت صرخة قصيرة ثم سحبت طفلها بعيداً. رجل قال بصوت عالٍ: «مجنون... هو يحتضن واحداً منهم!»

الكاميرات كلها استدارت في اللحظة نفسها. الأضواء الحمراء الصغيرة ثبتت على الاثنين كعيون جماعية. روبوت أمن كان على بعد ثلاثين متراً غيّر سرعته فجأة وانطلق نحوهما. ثم ظهر روبوت ثانٍ من الزاوية المقابلة، وثالث من خلفهما.

الصوت المعدني جاء من كل الجهات دفعة واحدة:

«توقف فوراً. افصل الاتصال الجسدي. المواطن كريم حسن... أنت في حالة مخالفة جسيمة لبروتوكول ما بعد العقوبة.»

كريم لم يفصل.

شدّ الشاب أقوى. أحس بأصابع الشاب تتشبث بظهره كأنها تخشى أن يُسحب منه في أي لحظة. همس في أذنه، والصوت جاء خافتاً وسط صفارات الروبوتات التي بدأت تنطلق:

«لا تخف. هذه المرة أنا من يبقى.»

الروبوتات وصلت.

أذرع معدنية باردة أمسكت بكتفي كريم وسحبته بقوة محسوبة. الشاب صرخ وحاول التمسك، لكن روبوتاً آخر فصله بلطف آلي ووضعه على الأرض. كريم لم يقاوم. جسده استسلم للأذرع بينما عيناه ظلتا معلقتين بعيني الشاب الذي كان يُبعد الآن بخطوات سريعة.

أحد الروبوتات رفع جبهته بيده المعدنية وفحص الجلد الوردي النظيف. ثم قال بصوت رسمي يُبث مباشرة إلى النظام المركزي:

«تم رصد تفاعل عاطفي علني متعمد مع حامل علامة اختفاء نشطة. إعادة فتح الملف رقم ٤١٧-ب. تهمة جديدة: مساعدة محظورة وإعادة إنتاج سلوك الجفاء العكسي.»

كريم ابتسم.

ابتسامة صغيرة هادئة، لا تشبه أي ابتسامة سابقة له. كانت الابتسامة التي لم يستطع أن يمنحها لوالده قبل سبع سنوات، ولا لزملائه في الاجتماعات، ولا لنفسه طوال عام الاختفاء.

الآن منحها للشاب النحيف الذي كان يُسحب بعيداً وهو ما زال يمدّ يده في الهواء كأنه يحاول الإمساك بشيء يتبخر.

الروبوتات قيدت يديه خلف ظهره بأصفاد خفيفة من الضوء الأزرق. بدأت تسحبه نحو سيارة أمنية طائرة هبطت بصمت في منتصف الشارع. الناس افترقوا كأنهم يفتحون ممراً لجنازة.

قبل أن يُدفع داخل السيارة، رفع كريم رأسه ونظر مرة أخيرة إلى السماء الصناعية الصافية.

همس، بصوت لم يعد يهتم إن سمعه أحد أم لا:

«أخيراً... فعلتُ شيئاً.»

الباب أُغلق خلفه.

السيارة أقلعت.

ومن خلال الزجاج المعتم، رأى المدينة تنخفض تحته من جديد، والناس يعودون إلى حركتهم المعتادة كأن شيئاً لم يحدث، والشاب النحيف يقف وحيداً في وسط الشارع وهو يمسح دموعه بيديه المرتجفتين... ويرى.

لأول مرة منذ زمن طويل، كان هناك من يراه حقاً.

الفصل السادس والعشرون

الحرية

الزنزانة كانت صغيرة ونظيفة وبلا نوافذ. الجدران بيضاء ناصعة تعكس ضوءاً أبيض هادئاً لا يأتي من مصباح ظاهر. كريم جلس على الحافة المعدنية الضيقة التي تُسمى سريراً، ويداه ما زالتا حرتين هذه المرة. الأصفاد الضوئية أُطفئت بمجرد دخول الباب خلفه.

لم يُسأل شيئاً بعد.

لم يُعرض عليه مدافع آلي.

لم تُعرض عليه التسجيلات.

فقط صمت كثيف، ورسالة قصيرة ظهرت على الجدار أمامه ثم اختفت:

«جلسة محاكمة طارئة خلال اثنتي عشرة ساعة. التهمة: مساعدة محظورة وإعادة إنتاج سلوك مخالف للتوازن العاطفي.»

كريم نظر إلى الرسالة حتى اختفت، ثم أسند ظهره إلى الجدار البارد.

للمرة الأولى منذ سنوات طويلة لم يكن يفكر في الهروب أو في الندم أو في كيفية إصلاح ما حدث. كان يفكر في الدفء الذي بقي على كتفه من احتضان الشاب النحيف. الدفء الذي لم يمحُه المعدن البارد للأذرع الآلية، ولا صفارات الإنذار، ولا نظرات الناس المرتاعة.

أغلق عينيه.

رأى وجه والده مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يكن ينظر إلى الساعة. كان ينظر إلى العينين اللتين طلبتا منه فقط أن يبقى. ورأى نفسه وهو يخرج من الغرفة، ويغلق الباب، ويتنفس الصعداء في الردهة.

ثم رأى نفسه وهو يفتح ذراعيه في منتصف الشارع المزدحم ويحتضن شاباً يرتجف من الخوف والجوع والعزلة.

ابتسم في الظلام.

بعد ساعات طويلة انفتح الباب. روبوتان دخلا. أحدهما يحمل الصندوق المعدني الصغير نفسه الذي رآه قبل عام ويوم واحد تقريباً. الضوء الأزرق الخافت يتسرب من داخله.

الروبوت الأول قال بصوت رسمي بلا نبرة:

«المواطن كريم حسن. بناءً على الأدلة المصورة والاعتراف السلوكي العلني، تُقرر المحكمة المختصرة إدانتك. العقوبة: إعادة وضع علامة الاختفاء الاجتماعي لمدة ثلاث سنوات كاملة، مع مضاعفة المراقبة.»

كريم رفع رأسه. لم يقف. بقي جالساً ونظر إلى الصندوق ثم إلى الوجه الأملس للروبوت.

سأل بهدوء:

«هل يمكنني أن أسأل شيئاً قبل أن تبدأوا؟»

الروبوت انتظر.

«هل الشاب... بخير؟»

صمت قصير. ثم جاء الجواب الآلي:

«المواطن الحامل للعلامة السابقة نُقل إلى وحدة رعاية مؤقتة. حالته مستقرة.»

كريم أومأ مرة واحدة.

«حسناً.»

قام ببطء. خلع قميصه دون أن يُطلب منه. وقف أمام المرآة الصغيرة المثبتة في الجدار. رأى الوجه النحيل، والعينين الغائرتين، والجبين الوردي النظيف الذي عاش أياماً قليلة فقط بلا علامة.

الروبوت فتح الصندوق. القلم الأزرق أُضيء.

«ابقَ ثابتاً.»

كريم ثبت.

الضوء لمس جبهته. الحرارة عادت، ثم الوخز، ثم الشعور الغريب بأن شيئاً يُزرع تحت الجلد من جديد. هذه المرة لم يُغلق عينيه. راقب في المرآة كيف تتشكل الدائرة والخطوط المتشابكة، كيف يتحول اللون من فضي إلى أسود لامع، كيف تعود العلامة لتحتل مكانها كأنها لم تغادر أبداً.

عندما انتهى الروبوت وتراجع، لمس كريم جبهته بأصابعه.

العلامة كانت دافئة.

نظر إلى انعكاسه طويلاً. ثم ابتسم ابتسامة هادئة وواضحة هذه المرة، ابتسامة تصل إلى العينين.

همس، والصوت ملأ الزنزانة الصغيرة كأنه يخص شخصاً أكبر منه سناً وأكثر هدوءاً:

«الآن... أنا حر.»

الروبوتان نظرا إليه لحظة، ثم انصرفا. الباب أُغلق.

كريم بقي واقفاً أمام المرآة. العلامة السوداء تلمع تحت الضوء الأبيض. لم تعد عقوبة في عينيه. صارت اختياراً. صارت الدليل الوحيد على أنه، في لحظة واحدة في منتصف الشارع، مدّ يده ولم يتركها تسقط.

جلس على الحافة المعدنية من جديد. أسند رأسه إلى الجدار. وأغلق عينيه.

خارج الزنزانة كانت المدينة تستمر في دورتها المعتادة: شمس صناعية، مطر مبرمج، ناس يبتسمون في الوقت المناسب، وروبوتات تسجل كل شيء.

أما هو، فكان يحمل على جبهته ثلاث سنوات جديدة من الاختفاء.

ولأول مرة في حياته كلها، لم يشعر أنه غائب.

شعر أنه وصل أخيراً.